تأليف
الدكتور عميراوي احميده

دراسات في تاريخ الجزائر الحديث

الطبعة الثانيـة

2004 / 1425



الأستاذ الدكتور

عميراوي احميده



دراسات

في تاريخ الجزائر الحديث

الطبعة الثانية

2004/1425

الرقم التسلسلي 1327 - 2004 دار الهدى
رقم الإيداع القانوني 2812 - 2004 المكتبة الوطنية
ردمك 7 - 597 - 60 - 9961

شركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع
المنطقة الصناعية ص ب 193 عين مليلة ـ الجزائر
الهاتف 47 95 44 032/00 92 44 032 الفاكس 18 94 44 032
www.elhouda.com



إهـــــداء الطبعة الأولى

إلى كلّ من ناضل ويناضل بصدق

من أجل أن تدوم الجزائر في عزّ..

إصدار وإهـــــداء الطبعة الثانية

قد أكون عبدا في ذاتي ولذاتي

قد أكون مُصادَرا في بلدي

لكنني حرٌّ في رحاب تاريخ وطني

فالتاريخ موطن الحرية لمن لا حرية له...

فإلى كل ملتزم للتاريخ أهدي له هذا العمل

الأستاذ الدكتور عميراوي احميده

قسنطينة في شهر رمضان 1425/أكتوبر 2004

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه سلسلة من المواضيع في تاريخ الجزائر الحديث سبق وأن ألقيت جـزءا منها دروسا على الطلبة بمدرجات الجامعة. ونُشرت في مجلات علمية جمعتها وأعدت طبعها قصد وضعها في متناول الأغلبية من الطلبة وغير الطلبة. وهي تتناول فترة من تاريخ الجزائر الحديث الذي انكببت على البحث فيه منذ أكثر من ربع قرن. والفترة المعنية بالدراسة هي فترة الاحتلال الفرنسي؛ لهذا جاءت المواضيع وعددها تسعة على الشكل الآتي:

1– الغزو الفرنسي للجزائر عام 1830

وهو الموضوع الذي كان ضمن محاور شهادة الماجستير والذي تهدف من تقديمه التعرف على ملابسات الحملة الفرنسية وردود الفعل المحلية؛ سواء الفرنسية التي كانت بين مؤيد ومعارض، أم الجزائرية التي تأرجحت بين القـوة والضـعف. وردود الفعل الدولية التي كانت بين مؤيد لأسباب مقنعة، مثل بلاطات أوروبـا وبين معارض مثل بريطانيا والباب العالي. وكانت كل ردود الفعل هذه محكومة إلى مصلحة كلّ بلد.

2 – التواجد الفرنسي في بجاية

من خلال هذا الموضوع يمكن التعرف على ظروف احتلال هذه المدينة. وعـن أهم العلاقات الأولى التي كانت بين السكان وسلطة الغزو الفرنسي. والهـدف

الأكثر فائدة منه هو التعرف على وثيقة نادرة تضمنت تسع مواد هي المسماة بمعاهدة سعد وليدو رابح 1835.

3 – معاهدة الدوائر والزمالة عام 1835

من خلال هذا الموضوع يمكن التعرف على التوسع الفرنسي في الغرب الجزائري وعلى وضع الريف فيه وعلى موقف السكان من التوسع الفرنسي وبخاصة على العلاقات التي كانت من قبيلتي الدوائر والزمالة وسلطة الأمير عبد القادر والفرنسيين. وكل ذلك من خلال وثيقة هامة متعارف عليها في الأرشيف الفرنسي

4 – بمعاهدة الدوائر والزمالة

وهي تتأسس من اثنتي عشر مادة. وقعت بين طرفين جزائري وفرنسي عام 1835

5 – من خصوصيات الفكر في العالم العربي

يتميز هذا الموضوع بوجهة نظر خاصة حول مميزات الفكر العربي الإسلامي خلال الفترة التاريخية الحديثة، وتتضمن هذه الميزة في الفكر السلفي النصي والعقلي، والفكر الصوفي السكوني، والفكر الليبرالي المبهر.

6 – الجانب الفكري من "المقاومة" "الشعبية" ضد التوسع الفرنسي في الجزائر

أبرزتُ من خلال هذا الموضوع البناء الاجتماعي الجزائري ومستوى الفكر فيه بداية الاحتلال الفرنسي. مع التركيز على طبيعة الاستعمار الاستيطاني الذي جاء بمعطيات جديدة؛ وعلى الموقف الفكري الجزائري تجاهه.

7– إسماعيل "عربان" والسياسة الفرنسية في الجزائر

هذا الموضوع على غاية من الأهمية. فهو ليس ترجمة لحياة هذه الشخصية فقط؛ وإنما هو دراسة لتيار فكري هام هو تيار السان سيمونية التي لعبت دورا بارزا في توجيه السياسة الفرنسية في الجزائر.

8 – وثيقة نادرة عن المؤسسات الثقافية في مدينة قسنطينة

أهمية هذا الموضوع تبرز في المادة الخبرية التي تركها لنا ضباط الاحتلال الفرنسي؛ لاسيما وأنها تتعلق بالمؤسسات الثقافية العلمية من مساجد وزوايا وهي كثيرة حسب هذه الوثيقة، وتزداد الأهمية بعرض نص الوثيقة.

9 – الأمير عبد القادر رائد الحركة الوطنية وبطل «المقاومة» المسلحة

بينت في هذا الموضوع الدور الرائد للأمير في تصديه لقوات الاحتلال وحروبه المتعددة وعلاقاته الدبلوماسية.

وإني آمل أن تثرى هذه المواضيع، مثلما آمل أن تكون مبادرة يقتدي بها الزملاء الأساتذة لجمع مواضيعهم التي نشروها لتكون في مكتبة معهدنا في متناول الأغلبية من الدارسين.

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين

مثلما هو مذكور في مقدمة الطبعة الأولى يتضمن هذا الكتاب موضوعات في تاريخ الجزائر الحديث، فضلت أن أعيد طبعها بعد نفاذها. وقد أضفت معلومات استقيتها من أطروحتي. لهذا جاءت هذه الطبعة مزودة بوثائق خاصة في موضوع التواجد الفرنسي في بجاية وموضوع وثيقة نادرة عن المؤسسات الثقافية في مدينة قسنطينة.

ونرجو أن يحقق هذا الكتاب المطلوب ويفيد القراء وبخاصة الطلبة منهم.

الدكتور عميراوي احميده

قسنطينة في 2004/10/10

الغزو الفرنسي للجزائر سنة 1830 وردود الفعل حوله[1]

---

1 – نشر هذا المقال في مجلة سيرتا، يصدرها معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، العدد 3، ماي 1980 ص–ص.90–103

لم تكن فرنسا ولا الدول الأوروبية القوية تفكر بشكل عملــي وســريع في القضاء على ما كان يسمى بالقرصنة في النيابات (الولايات) العثمانية بالمغرب العربي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر إلى أن عقد مؤتمرٌ عــام 1815 بفيّنا حيث اتفق فيه على جملة من الأمور ومنــها القضــاء علــى القرصــنة الجزائرية1. وكلف اللورد اكسماوث (Lord Exmaouth) للقيام بحملة بحرية لضرب مدينة الجزائر[2] قصد إضعاف نشاط القرصنة وهو خلاف مــا كانــت تريده الحكومة الفرنسية. والظاهر أنها كانت تفضل استمرار القرصــنة علــى هيمنة بريطانيا في البحر المتوسط.

ولعل النية كانت من موقف فرنسا هذا هو التمهيدُ منها لغزو الجزائر، إذ تمّ لها ذلك بعد أن توفرت الأسباب وتعينت الأهداف، حيث اتخــذت الحكومــة الفرنسية من حادثة المروحة وقصف السفينة "لابروفنس" مبررا ظاهريا لقيامهــا بتلك الحملة، بالإضافة إلى سبب عدائي قديم تمتد جذوره إلى عهد لويس الرابع

---

1 – يراجع: صلاح العقاد، المغرب العربي، ط.3، مكتبة الأنجلو- المصرية 1969، ص.79.

2 – كانت هذه الحملة مجهزة بـ 33 سفينة. للمزيد ينظر: التميمي عبد الجليل، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي (1816-1871)، الدار التونسية للنشر، تونس 1972، ص.238.

عشر[1]. وكان لتلك الحملة ردود فعل مختلفة سنحاول دراستها من خلال النقط الآتية:

1– ردود الفعل داخل فرنسا

2 – موقف الباب العالي من الاحتلال

3 – ردود الفعل الدولية

4 – "المقاومة" في الجزائر وانعكاساتها على الرأي العام الفرنسي

1 – ردود الفعل داخل فرنسا

تولدت ردود فعل مختلفة عن الغزو الفرنسي للجزائر داخل فرنســا نفســها وذلك نتيجة للأوضاع السياسية والاجتماعية التي كانت سائدة يومئذ، فقــد كانت فرنسا تعيش صراعات سياسية وتناقضات اجتماعية مردهــا الفــروق الطبقية وما كانت تحظى به بعض الطبقات من امتياز. وقد تتالت الأحداث منذ أن تولى شارل العاشر الحكم مما زاد في حدة الخلاف بين أعضــاء الحكومــة

---

1 -أرجمنت كوران، السياسة العثمانية اتجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، تعريب التميمي عبد الجليل، ط.2، تونس 1974، ص-ص.18-19. كان أسطول الحملة الفرنسية مكونا من 675 سفينة تجارية وحربية، منها 7 بواخر. يراجع:

Nettoment (A), Histoire de la conquête d'Alger, Jaque le Coffre et Cie, Paris 1856, P-P.238-241

وفئات المعارضة، وخاصة لما أصدر الملك قرارات[1] كانت محل نقد وسخط من أغلب أوساط الشعب الفرنسي، لأن الأحرار في فرنسا فهموا أن الملك يريد بقراراته هذه الانتقام من الدستوريين لاسيما وأنه عين دي بورمون قائدا عاما للحملة في الوقت الذي كانت فيه نظرتهم إليه على أنه رجعي لأنه خان نابليون في معركة واترلو 1815، وأنه تعاون مع أسرة البوربون في قمع الحركات التحررية وقاد الحملة ضد أحرار أسبانيا عام 1823.

ولما تمّ الإعلان الرسمي عن إرسال الحملة الفرنسية ظهرت ردود فعل يمكن حصرها في أوساط:

1. **الملكيين.**
2. **المثاليين.**
3. **الليبراليين.**
4. **الاقتصاديين.**

فالملكيون كانوا يؤيدون الحملة بهدف دعم شعبية الملك الذي لم يكن محبوبا من الشعب، وكذلك إلى التخلص من دفع ديون الحبوب التي كانت "للجزائر" ولرعاياها على فرنسا، وبهدف مزاحمة بريطانيا في مجالات استراتيجية. وناصر

1- من هذه القرارات منح مليار من الفرنكات إلى المهاجرين الفرنسيين النبلاء. يراجع: هـ.أ. فشر، تاريخ أوروبا في العصر الحديث، تعريب: أحمد نجيب هاشم، ووديع الضبع، ط.5، دار المعارف بمصر ص.139

الحملة كل من كانت مصالحه مرتبطة بتحقيق هذه الأهداف؛ خاصة الغرفة التجارية بمرسيليا التي كانت تتزعم الطبقة البرجوازية الفرنسية. إذ هي التي شجعت فكرة فرض الحصار البحري على الجزائر لتوسيع اقتصادها. وكان على رأس هؤلاء الملكيين الأمير دي بولينياك(De Polignac) رئيس الحكومة الذي رأى في الحملة وسيلة لتحقيق مكاسب كثيرة وهامة لفرنسا؛ منها حسب رأيه:

1. تحقيق مكسب أدبي يتمثل في حماية المسيحيين الذين يعاملون في الجزائر كعبيد وهذا لا يشرف فرنسا. وآخر سياسي وهو وضع حد للنشاط القرصنة وحماية التجارة الأوروبية بعامة. والفرنسية بوجه خاص.
2. الحصول على مصادر تجارية واسعة بضمان طريق المواصلات إلى مصر، وهذه النقطة كانت موضع اهتمام خاص فهي كانت أكثر من عامل لنشاط المؤسسات الفرنسية في إفريقيا[1]. كل هذا كان لا يتم في رأي دي بولينياك إلاّ في الاحتفاظ بالجزائر العاصمة وبأغلب المدن الساحلية، لاسيما مدينة عنابة التي كانت تعتبر مصدرا هاما لتجارة حوض البحر المتوسط، بينما كان الاعتبار في نظر الساسة الفرنسيين أن تبقى بقية الأراضي للباب العالي.

إلا أن وزير البحرية الجنرال دوسي (D'Hausser) أمر باحتلال جميع الموانئ. وقد أيده المارشال دو بورمون الذي أكد للغرفة التجارية بمرسيليا قبل انطلاق الحملة بقوله بما معناه أن فرنسا ذاهبة لأخذ الجزائر وللإنشاء

1- Roux (Ch), France et Afrique du Nord avant 1830, Félix Alcan, Paris 1932, P-P. 502-503

مستعمرة فيها، ولتأسيس حكومة بها يرأسها أمير فرنسي[1]. ووجدت هذه الآراء الصدى الواسع في أغلب أوساط المجتمع الأوروبي، فمنهم من أيد ومنهم من عارض.

أما المثاليون وبخاصة الدينيون منهم الذين لم يبرروا في الاحتلال تحقيقا للمكاسب المذكورة فحسب بل نشرا للحضارة المسيحية أيضا في مجتمع بدائي لا يعيش -حسب رأيهم- إلا على الحرب والنهب[2]. ونذكر من المؤيدين من المثاليين -على سبيل المثال لا الحصر- أليكس كولومبيل(Alex Colombel) الذي نشر مقالا في فيفري 1830 مفاده أن احتلال الجزائر عامل مكمل لحضارة فرنسا، وعامل موازاة مع بحر المانش ودعم هام لحرب قد تكون ضد إنجلترا لضرب تجارتها الذي هو بمثابة الضرب في قلبها[3]. وقد يكون من الأسباب التي ساعدت على أن يكون الموقف مشحونا بعداوة من أغلب الدول الأوروبية حيال الجزائر لأن هذه الأخيرة كانت تمثل القوة الإسلامية في بلاد المغرب العربي بينما كانت فرنسا تمثل القوة المسيحية في البلاد الأوروبية.

أما اللبراليون فقد انقسموا إلى مؤيد ومعارض وكان المعارضون وقفوا ضد مشروع الحملة بشدة. وكان لموقفهم أثر عميق على السياسة الفرنسية الداخلية

---

1. Valet René, L'Afrique du Nord devant le parlement au XIXe siècle, H. Champion, Paris 1924, P.43.

2 -المصدر نفسه، ص.18.

3. Du parti qu'on pourrait tirer d'une expédition d'Alger, Evert, Paris Février 1830.

منها والخارجية، الأمر الذي أدى إلى أن يتعاقب ثلاثة وزراء على الحكم في عهد شارل العاشر الذي أطيح بعرشه هو الآخر إثر ثورة جويلية 1246هـ/1830م[1].

ففي دورة البرلمان سنة 1829 قدمت إحصاءات عن خسائر الحصار البحري التي بلغت خلال سنتين 14 مليون فرنك، ثم طُلب من الحكومة الفرنسية سبعة ملايين أخرى إضافية؛ فوجهت المعارضة انتقادات شديدة ضد هذا المطلب وضدّ ذلك الحصار السلبي الذي لم يمنع ما كان يسمونه بالقرصنة من ممارسة نشاطهم.

وكان من أشد المعارضين للحملة من اللبراليين المار ميلي توماس (Thomas) الذي قال في جلسة البرلمان يوم 10 جويلية 1829 إن الحرب ضد الجزائر شديدة جدا فمنذ سنتين وأسبابها الأولى غير معروفة. فقط قال الوزراء إن الداي أهان القنصل، ولكنهم لم يوضحوا أسباب هذه الإهانة وما هي أبعادها وظروفها؟ ثم أضاف قائلا: أن 14 مليون فرنك قد ضاعت خلال العامين السابقين والآن يطلب اعتماد 7 ملايين أخرى وهذا للحصار فقط. لماذا هذا؟[2].

ومن أبرز المعارضين كذلك الجنرال فوي (Général Foy) والنائب الكونت الكسندر دي لابورد (Alexandre de Laborde) وآلار (M. Allar) ودي

---

1 – والوزراء هم: فيلال ثم دي مارتنياك وأخيرا دي بولينياك.

2. Nettement (A), op.cit. P-P.188-189

صاد (De Sade). إذ أنه في الوقت الذي أوشك تحضير الحملة على نهايتها نشر دي لابورد مقالا في منتصف أبريل 1830 تحت عنوان: "إلى الملك وإلى الغرف حول الأسباب الحقيقية للمقاطعة مع الداي" هاجم فيه مشروع الحملة ودعا جميع الأطراف بغض النظر عن اختلافاتها إلى التعقل والوقوف ضد الحملة التي اعتبرها جريمة ترتكب ضد الجزائر. ثم ألح على ضرورة إيجاد وسائل أخرى غير والوسيلة العسكرية لحل النزاع القائم بين الجزائر وفرنسا. وأنه من الأفضل – حسب رأيه– أن تستغل أموال فرنسا وتراق دماء أبنائها من أجل سبب آخر غير هذا[1] خاصة وأن فرنسا أنفقت سنويا آنذاك حوالي 400 مليون في أسبانيا ومن دون مقابل ملموس يعود على فرنسا بالفائدة، علاوة على أن خسائر الحصار على الجزائر المالية والبشرية كبيرة جدا. وحاول في نفس الوقت إقناع الرأي العام الفرنسي أن فرنسا تحتاج إلى منشآت داخلية لا إلى مستعمرات. وبالرغم من أن مقاله جاء متأخرا لأن الحملة كانت تهيأت للانطلاق والبرلمان قد أغلق أبوابه فإن مقاله أحدث صدى عميقا في أوساط الشعب، مما أثر على المناقشات التي جرت فيما بعد حول فكرة الجلاء التخلي عن الجزائر أو الاحتفاظ بها.

ومن الذين كان لهم تأثير قوي على مجرى السياسة الفرنسية حيال القضية الجزائرية المفكرون الاقتصاديون الذين عارض أغلبهم مشروع الحملة، وتأسيس

1- De Laborde (A), Au Roi et aux Chambres sur les véritables causes de la rupture avec Alger et sur l'expédition qui se prépare, Truchy, Paris 1830, P.82.

مستعمرات فرنسية لأن ذلك حسب رأيهم– لا يكون إلا على حساب الشعب الفرنسي وعلى حساب فلاحته، وصناعته، وخزينته وقد أخرجت هذه الآراء المعارضة الحكومة الفرنسية وأثرت على معنويات الشعب غير المتحمس لمشروع الخطة. إلا أن تلك الانتقادات لم تتعد مستوى الكلمة المسموعة أو المكتوبة إلى العمل الفعلي.

وفي الوقت الذي كان فيه الرأي العام الفرنسي ينتظر باشتياق تحرير بعض البلدان كاليونان ويتتبع باهتمام تهديدات الروس ضد الدولة العثمانية ويدعو إلى تدعيم حرية الشعوب، في هذا الوقت فوجئ بإعلان التعبئة العامة للقيام بحملة ضد ولاية الجزائر، بعد أن اختمرت أسبابها وتعين هدفها، وتوفرت وسيلتها، وإن كان ينقصها شيء حدده دو لابورد في تأييد الشعب؛ لهذا كثرت التأويلات حول مغزى هذه الحملة إلى أن اعتقد الرأي العام في أن الهدف الحقيقي من الحرب ضد ولاية الجزائر ما هو إلا إعداد الجيش الفرنسي لحرب ضد الباريسيين[1].

ومهما يكن فقد نجحت الحكومة الفرنسية في خطتها واحتلت الجزائر العاصمة في عهد أضعف وزارة فرنسية وأضعف ملكية. إلا أنها فوجئت بمقاومة وطنية عنيفة زادت في ردود الفعل وشجعت المعارضين الذين استغلوا مواقف بعض الجزائريين أمثال حمدان خوجة للضغط على الحكومة الفرنسية.

1- Valet. P. 50.

هذا في الوقت الذي راح فيه فريق آخر يؤيد الحملة ويدعو إلى استعمار الجزائر، إذ في 12 جويلية 1830 نشر الضابط المتقاعد بابرون (Babron) مقالا مضمونه أن شرف فرنسا لن يكون ولن يحفظ إلا في الاحتفاظ بالجزائر كموقع إستراتيجي حربي لحماية التجارة الفرنسية ولمنافسة بريطانيا[1] وعملت الحكومة الفرنسية بهذه الآراء فاحتفظت في الجزائر التي صارت دعامة بوصفها الاقتصادي والعسكري بجانب مواقف بعض التيارات الفكرية التي شجعت عملية الاستيطان في الجزائر. سيكون الحديث عنهم في حينه

2– موقف الباب العالي من الاحتلال:

في نهاية القرن الثامن عشر توثقت الروابط بين ولاية الجزائر والباب العالي أكثر مما كانت عليه؛ على عكس ما ذهب إليه معظم المؤرخين أمثال أرجمنت كوران الذي قال: "أن الروابط بين وجاق الجزائر والباب العالي قد ضعفت وصارت التبعية عبارة عن تصديق السلطان على توليه الداي فقط"[2]. إذ لما احتل الجنرال بونابرت مصر سنة 1798 ضغط السلطان بإنذار شديد اللهجة على وجاق الجزائر ليقاطع فرنسا، ونفذ الداي ذلك بالرغم من أن علاقات ودية كانت تربطه بفرنسا.

---

1 –هذا المقال نشر بعنوان.

Il faut garder Alger L'honneur français l'ordonne Seuer Paris 12 7-1830

2 –ينظر أرجمنت كوران، السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، ترجمة عبد الجليل التميمي، الدار التونسية للنشر، ط2، تونس 1972، ص 15–16

وبعد أن تصالحت الحكومة الفرنسية مع الباب العالي عادت العلاقات من جديد إثر التوقيع على معاهدة الصلح بين وجاق الجزائر والحكومة الفرنسية (سنة 1801). هذا من جهة. ومن جهة أخرى فعلى الرغم من وجود قانون يمنع تجنيد من ترك نتيجة لإلغاء نظام الانكشارية في عهد السلطان محمود فقد سمح السلطان العثماني بتجنيد عساكر من أزمير للالتحاق بالجزائر بناء على طلب الداي حسين بقناعة أن الجزائر كانت تعيش ظروف حصار، ومن جهة ثالثة أرسل الداي سفنا جزائرية لتحارب بجانب الأسطول العثماني. كل هذا وغيره يدل على متانة الصلة، التي كانت تربط الوجاق بالباب العالي، لهذا لما غزت فرنسا الجزائر كان للدولة العثمانية ردود فعل مختلفة تمثلت في:

1 – المجال الدبلوماسي

2 – العمل السياسي

3 – الميدان العسكري

1– المجال الدبلوماسي:

قامت الحكومة العثمانية بالاحتجاج بواسطة –رئيس الكتاب– على تهديد فرنسا بإعلان الحرب ضد الجزائر فيما لو لم يتدخل الباب العالي لتأديب الداي. لأن السفير الفرنسي دي قيمينو (De Guilleminot) باسطانبول قدم مذكرة في 2 أوت 1827 إلى رئيس الكتاب جاء فيها. "وحيث أن الداي قد زاد من تعدياته السابقة بتحقيره قنصل فرنسا في الجزائر فإن جانب ملك فرنسا اضطر لطلب ترضية علنية مهددا بالحرب في حالة رفض طلبه، وحيث أن طلبه قد

رفض وعيه فالحرب محققة"[1]. فاحتج رئيس الكتاب على هذه المذكرة قائلا ليس لفرنسا الحق في أن تعلن الحصار أو الحرب دون إعلام الباب العالي مسبقا، إلا أن الحكومة الفرنسية لم تبال بهذا الاحتجاج لأنها كانت تدرك أن الدولة العثمانية لا تستطيع أن تفعل شيئا لانشغالها بالثورات الانفصالية خاصة الثورة التي قامت في جزيرة مورا، زيادة على ما خلفها من ضعف إثر انهزامها في معركة نافرين (1827).

وبعد أن وقعت السلطة العثمانية معاهدة أدرنة مع روسيا في سبتمبر 1829 زادت من اهتمامها بقضية الجزائر فأوفدت خليل أفندي إلى الجزائر في أوائل نوفمبر من نفس السنة أملا في أن يعقد صلحا بين الطرفين المتنازعين، إلا أن السفير الفرنسي طالب الباب العالي مرة أخرى بضرورة تأديب والي الجزائر مقترحا حملة قوامها عدة آلاف يسمح لها حضرة السلطان بفرمان (بيان) يحمل خط يده الشريفة لتأديب الداي[2] لكن الباب العالي رفض بكل شدة وأسرع في إرسال طاهر باشا إلى الجزائر مارا بمصر، لكن قائد الحصار الفرنسي لم يسمح له بالمرور، إلى أن علم الباب العالي بسقوط الجزائر من خلال مذكرة قدمها له السفير الفرنسي في أوائل أوت 1830، حيث طلب فيها شروطا قاسية مقابل ترك ولاية الجزائر للباب العالي لكنّ السلطان رفض هذه الشروط.

---

1 – أرجمند كوران، ص.23.

2 Douin (C). Mohamed Aly et l'expédition d'Alger (1829-1830), Le Caire 1930. P 52

ثم انشغل بهجوم والي مصر على سوريا في أوائل نوفمبر سنة1831. ولما تصالح مع كل من والي مصر وباقي الدول المجاورة في منتصف سنة 1833 جدد اهتمامه بقضية الجزائر. وصادف أن وردت في هذه الفترة عريضة من حمدان خوجة باسم ابراهيم بن مصطفى باشا إلى وزير البحرية التركي تقرر على إثرها إرسال مصطفى رشيد باشا في سبتمبر 1834 سفيرا إلى باريس لعرض تذكير الحكومة الفرنسية والاتصال بمن يهمهم الأمر أمثال حمدان خوجة، إلاّ أن مساعيه باءت بالفشل. ونفس المصير لقيته محادثات نامق باشا في لندن.

والملاحظ عن الباب العالي أنه كان في هذه الفترة كثير التشاور مع الدول الكبرى، وكان يأمل في الحصول على مساعدتها بالرغم من تماطلها وتظاهرها في أنها ستتحكم في الموقف بحزم، وعندما تيقن من أنه لا يمكن استرجاع الجزائر بالطريقة الدبلوماسية حاول تطبيق طريقة أخرى تمثلت في:

2 – العمل السياسي:

بعد أن فشلت المحادثات في باريس ولندن قرر الباب العالي القيام بمحاولة لاسترداد الجزائر أو على الأقل لمنع فرنسا من أن تتوسع في بلاد المغرب العربي، فأرسل حملة عسكرية إلى طرابلس الغرب وصلت يوم 26 ماي 1835 وتمكنت من القضاء على الخلاف القائم هناك بإلحاق حكم الولاية بالباب العالي مباشرة. بالإضافة إلى أنها كانت محاولة هامة لحماية تونس من الاحتلال الفرنسي أملا في أن تقدم مساعدات لأحمد باي بقسنطينة. وتخوفت فرنسا من تنفيذ مخططاتها فأرسلت سفنها لمنع الأسطول العثماني الذي لوّح برغبة الباب

العالي لضم تونس[1]. وكان من السهل لفرنسا أن تعمل على ضمّ تونس إلى جانب نفوذها نظرا لضعف الحكم في تونس من الناحية العسكرية وللعلاقات السياسية والاقتصادية التي كانت تربط تونس بفرنسا، ولخوف باي تونس من سقوط الأسرة الحسينية كما وقع في ليبيا، لهذا كان الباي التونسي كثير الميل إلى فرنسا.

3 – الميدان العسكري:

لما نجح السلطان في فرض سياسة الأمر الواقع على طرابلس اقترب من الأحداث الجارية في الشرق الجزائري وصار بإمكانه التدخل، إلا أن ذلك لم يكن ليتم إلا عن طريق البحر لاسيما وأن طلب النجدة من أهالي قسنطينة وعلى رأسهم الحاج أحمد باي كان يتزايد من يوم لآخر، في الوقت الذي استطاع فيه الحاج أحمد باي أن يؤسس نظاما جزائريا يتماشى وقدرته إذ جزأر المناصب وعبأ الشعب للمقاومة، فالتف الأهالي حوله مما ساعدهم على أن يقاوموا عدوا يفوقهم عدة وعددا مدة طويلة، وبفضل هذا الالتفاف صمد أحمد باي ولم يستسلم بعد سقوط عاصمته إذ أنه ترأس «المقاومة» واستمر على اتصال بالسلطان العثماني الذي كان ينصحه بالتزام الطاعة والصمود وعدم التفاوض مع العدو[2] والظاهر أن السلطان تزعزعت ثقته في الحاج أحمد

---

1 – أرجمنت كوران، ص.59، 61، 62.

2 – مذكرات أحمد باي، تعريب العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1973، ص.30-31

باي نتيجة أقوال أشاعها باي تونس وصفه من خلالها بالداعي للنزعة الانفصالية عن الدولة العثمانية فأرسل السلطان كامل باي ليتأكد من صحة ذلك وليحث الأهالي على التزام الطاعة للسلطان، وبعد الهجوم الفرنسي الأول على مدينة قسنطينة عام 1836 طلب أحمد باي مساعدات عسكرية من السلطان قائلا: "ونخبركم بأننا لن نبخل عليكم بمعونتنا وسنرسل إليكم عددا كافيا من الجنود والمدافع". وصلت تلك النجدة إلى تونس وعددها أربع سفن مشحونة بالجنود الأتراك على متنها 12 مدفعا و150 من رماة المدافع[1]. إلا أن باي تونس لم يسمح لتلك النجدة أن تمر معتذرا بأنه يخشى تدخل الأسطول الفرنسي ومهاجمته للمدينة، وحتى لا تسوء علاقاته الطيبة مع الحكومة الفرنسية إلا أن الهدف الحقيقي هو محاولة لإضعاف قوة أحمد باي التي كانت تهدد الحكم القائم في تونس.

وكان رد الحكومة الفرنسية على هذا التدخل التركي لمساعدة أحمد باي بقوة إذ أنه في الوقت الذي كان فيه أعضاء الباب العالي يتشاورون في مسألة هي هل يمنح لقب الباشا إلى أحمد باي أم لا؟ حذر السفير الفرنسي الموجود باسطنبول وزير الخارجية خسرو باشا قائلا: في حالة ما إذا وافقت الحكومة التركية على ذلك سوف تنتج عنه عواقب سيئة بين الحكومة الفرنسية والعثمانية وفي مقام آخر حذرت الحكومة الفرنسية بأنه في حالة تحقيق

---

1 - أرجمند كوران، ص. 21

السلطان بمنصب قسنطينة وإن فرنسا ستعتبر نفسها في حالة حرب مع الدولة العثمانية[1].

ولما أبحر الأسطول العثماني متجها نحو المياه الإقليمية التونسية أملا في ضمها إلى حظيرة الباب العالي على غرار طرابلس بادرت الحكومة الفرنسية بإرسال أسطولها للحيلولة دون وصول الأسطول العثماني إلى المياه التونسية بحجة حماية المصالح التجارية والسياسية في حوض البحر المتوسط. ولم يجد الأسطول العثماني بدا من العودة إلى اسطامبول في أواسط سبتمبر 1837 دون أن يحقق هدفه، وتعتبر هذه العملية آخر محاولة عسكرية للباب العالي رغم سقوط مدينة قسنطينة وتزايد طلبات النجدة من الحاج أحمد باي إذ التزمت السلطة العثمانية الصمت مما يدفع الباحث على القول إن الباب العالي لم يكن قادرا على استرجاع الجزائر. ويتأكد هذا في أول حولية نشرتها الدولة العثمانية سنة 1847 حيث لم تكتب ولاية الجزائر في جدول الولايات العثمانية كما كان يحدث سابقا

3 – ردود الفعل الدولية

لم تؤيد أغلب الدول الأوروبية الحملة الفرنسية فحسب بل دعمتها بطريقة مباشرة وغير مباشرة، ونذكر من بينها النمسا وروسيا وبروسيا، باستثناء بريطانيا التي كانت في عداء تقليدي ضدّ فرنسا منذ الفترة التي ورثت فيها بريطانيا معظم التوسعات التي اقترنت بالكشوف الجغرافية. حيث كانت ضد

1 أرجمند كوران ص. 76

مشروع الحملة بوجه خاص، والسر في ذلك حتى لا تتمكن فرنسا من تكوين إمبراطورية تنافسها. ولعل هذا ما يفسر موقف بريطانيا من عدم مساندتها عندما الفرصة المغربية لاسيما وأنها كانت قوية في البحر المتوسط إبان حروب نابليون، واكتفت بالحملات التأديبية ضد داي الجزائر دون القضاء النهائي على القوة البحرية. وكانت تراقب نشاط فرنسا إذ هي التي جهرت بسرية المفاوضات التي كانت بين دروفتي الفرنسي وإبراهيم باشا، وساهمت في إجهاض حملة محمد علي[1]، وضغطت من جهة أخرى على الباب العالي كي يسرع في إرسال طاهر باشا شرط أن يمر بالإسكندرية. إلا أن فرنسا استطاعت أن تسلك طرقا أكثر التواء تخلصت من المضايقات البريطانية بأن قامت هي نفسها بالحملة وأعطتها صبغة مسيحية بعد ووظفت وسائل دعائية كبيرة بأن ورعت نشرات على أغلب الدول الأوروبية أشعرت فيها بضرورة مساعدة نجاح الحملة التي قالت عنها إنها ستخدم مصالح أوروبا كلها ولم تجد بريطانيا حجة تدعم بها اعتراضها سوى أن طلبت من الحكومة الفرنسية بيان رسمي عن الهدف الحقيقي من الحملة خوفا من أن تتوسع فرنسا في بلدان أخرى كسردينيا[2]. ثم مارست بعض الضغوط على فرنسا بأن وقفت بجانب الباب العالي تناصره دبلوماسيا، وكان موقفها ضعيفا حيال القضية الجزائرية

1 أرجمند كوران ص 31. وكذلك Nettement p. 263.

2 - - ينظر

Esquer (G), Les commencements d un Empire. La prise d'Alger, 1830. Larose. Paris 1929. P-P 151 152.

لاستردادها، والظاهر أنها كانت تهدف من وراء تحركها السياسي إلى الحد من التوسع الفرنسي فقط وكسب مشاعر الباب العالي. ومن الطبيعي أن يكون موقف بريطانيا كذلك لأن المعارضة البريطانية لم تكن إلا من طرف الحكومة وهيئة العسكرية على وجه الخصوص. ولم تكن من طرف البرلمان ولا من طرف الشعب إذ لم يكن الرأي العام يفكر في حرب ضد فرنسا من أجل الجزائر، علاوة على أن اهتمام العامة كان مركزا حول الإصلاحات الانتخابية الجارية وحول من يخلف الملك جورج الرابع الذي توفي في جوان 1830

ولم تستمر الحكومة البريطانية في موقفها المعادي لفرنسا بخصوص القضية الجزائرية، بل عدلت عن سياستها فأيدتها ظاهريا بعد أن اعترفت بلويس فيليب ملكا على العرش الفرنسي[1]. وبذلك كشفت بريطانيا عن نيتها الحقيقية تجاه الباب العالي وهذا ما يفسره رد السفير الإنجليزي على رئيس الكتاب العثماني يوم 29 جانفي 1831 من أن بريطانيا ليست مستعدة أن تخوض حربا مع فرنسا من أجل استرجاع الجزائر[2]

والمتتبع للأحداث يحكم على هذا التحول البريطاني بأنه جاء نتيجة لظروف ...ة كانت تخدم مصالحها. وهذا راجع لوجود حلف مقدس عقد بين النمسا وبروسيا ضد الثورات، ولما أحست بريطانيا بأنها بقيت معزولة فضلت

1 - أرجمند كوران. ص. 45-51.

2 - المرجع نفسه ص. 44

الانضمام إلى فرنسا؛ خاصة بعد أن تبين لها أن الدولة العثمانية غير قادرة على استرجاع الجزائر.

أما ردود الفعل المؤيدة للحملة فكانت من طرف النمسا التي اهتمت بهذا الحدث اهتماما كبيرا لدرجة أنها كانت تراقب كل نشاطات الحكومة الفرنسية حول القضية الجزائرية. فهي من بين الدول التي كشفت النقاب عن محتوى تلك المفاوضات التي جرت بين الحكومة الفرنسية ومحمد علي باشا، وأعلنت معارضتها، إلا أنها سرعان ما غيرت رأيها وأعلنت مباركتها للحملة لما قررت الحكومة الفرنسية القيام بها.

وقدمت مساعدة تمثلت في إرسال بعض الضباط أمثال فردريك شوارتز امبرغ (Frédéric Chauartz Emberg)[1] الذي شارك في معركة عام 1830 بجانب القوات الفرنسية وكان هدف النمسا من وراء ذلك تشجيع القادة الفرنسيين على القيام بهذه الحملة لتحويل اهتمام الحكومة الفرنسية إلى التوسع في مناطق أخرى غير مناطق أوروبية؛ لأنه من مصالح النمسا أن تبقى أوضاع أوروبا على حالها

ولما قامت ثورة جويلية 1830 الفرنسية تخوفت النمسا فسعت بكل حزم إلى عقد معاهدة دفاعية مع كل من روسيا وبروسيا لغرض الحفاظ على النظام القائم والوقوف ضد أي عمل ثوري فرنسي ثم أشارت على الباب العالي أن يتريث في مطالبته باسترجاع الجزائر حتى يتسنى الوقت الكافي للحكومة

1- Nettement, p. 289

الفرنسية الجديدة كي تصر على الاحتفاظ بالجزائر. وبالرغم من موقفها هذا استطاعت بريطانيا أن تحافظ على علاقاتها الدبلوماسية الحسنة مع الباب العالي الذي كان يسعى بدوره لكسب ودها رغم أنه كان يعلم سوء نيتها. ولنفس الغرض تقريبا كان موقف بروسيا حين شجعت تلك الحملة. وكان هدفها أن يخلو لها الجو في مناطق من الأناضول وغيرها بعيدا عن خطر الثورة الفرنسية. لهذا عارضت الحملة على يد محمد علي باشا بينما أيدتها لما قامت بها فرنسا ففي 13 ماي 1830 كتب القنصل الروسي الكونت بورودي بورغو (B. Borgo) إلى الحكومة الفرنسية يقول بأن الإمبراطور يتمنى أن يعين ضابط متطوع تابع لوحدة الهندسة العسكرية ليشارك في الحملة وهو العقيد فيلوزولوف (Filosoloff)[1].

وكان غرض روسيا من هذا العمل تحويل اهتمام الحكومة الفرنسية إلى ميدان غير ميدان الشرق الأوروبي. وإثر قيام ثورة جويلية 1830 تخوفت الحكومة الروسية فطلبت من الملك الجديد الذي كان كثير النصائح إلى رئيسها كي يلتزم الصمت حتى تتضح الأمور خوفا من أن يؤثر ذلك على الحكومة الفرنسية الجديدة فتغير موقفها من فكرة الاحتلال[2] ونفس المنوال سارت عليه الإمارات الأوروبية الأخرى كإسبانيا التي بعثت ضباطا للمشاركة في الحملة

1 - المصدر نفسه ص. 259

2 - مزيد من المعلومات يرجع Charles Roux

منهم العقيد دون أنطونيو لاسكان (Don Antonio Lascane) وخصصت مستشفى لمرضى الجيش الفرنسي[1].

4 - «المقاومة» في الجزائر وانعكاساتها على الرأي العام الفرنسي

استطاعت الحملة الفرنسية أن تحقق هدفها من احتلال مدينة الجزائر على الرغم من استعداد الداي وأعوانه. ولجأ الداي وحاشيته إلى نابلي. وبعدها تولدت ردود فعل من أغلب الأوساط يمكن حصرها في موقفين هما:

4 - 1 - ردود الفعل لدى الأتراك العثمانيين والكراغلة في الجزائر

4 - 2 - «مقاومة» الأهالي الجزائريين وانعكاسات ذلك على الرأي العام الفرنسي.

4 - 1 - أما عن ردود الفعل لدى الأتراك العثمانيين والكراغلة فيمكن القول أن الداي لم يجد بدا من الاستسلام حفاظا على مصالحه ومصالح أسرته وبعد هذا الاستسلام طرد الفرنسيون أغلب الإنكشاريين واضطهدوا البقية منهم مما أدى إلى تذمرهم وسخطهم على الجيش الفرنسي ونظامه[2].

أما الكراغلة فتعامل أغلبهم مع الفرنسيين خوفا من تدهور مراكزهم الاقتصادية والاجتماعية علاوة على مطامعهم السياسية التي أرادوا تحقيقها في ظروف سياسية جديدة خاصة وأن بعضهم كانوا يحملون فكرة حسنة عن

1 -Nettement, p-p. 289-290

2 - ينظر: سيمون بفايفر، مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر تعريب أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1974، ص 109.

عظمة فرنسا وعدالتها أمثال حمدان خوجة الذين تأثروا بتلك النشرات التي كانت وزعت على السكان من تونس[1]، فتقرب منهم إلى قائد الحملة ومنحوه ثقتهم ومساعدتهم وحتى مساكنهم لتكون مقرا للمحاربين الفرنسيين، ونتيجة هذه المواقف تعين الكثير منهم في مناصب هامة[2].

4 – 2 – «مقاومة» الأهالي الجزائريين وانعكاسات ذلك على الرأي العام الفرنسي

لم يف قادة الحملة بما تعهدوا به من احترام السكان واحترام دينهم وأملاكهم وفقا لما جاء في الاتفاقية المبرمة بين الداي حسين وقائد الحملة دي بورمون إذ انتهك أفراد الحملة الفرنسية حرمة السكان ووصل بهم الحال إلى أن نبشوا قبور أجداد الأهالي وصدّروا عظامها إلى فرنسا فأثار هذا التصرف سخط الأهالي[3]. ومن جهة أخرى كان قادة الحملة يعتقدون بأنه من السهل الاستيلاء على كل المدن الساحلية الجزائرية مثلما حدث للعاصمة، إلا أن

1 - وزعت منشورات من تونس على سكان الجزائر تمهيدا للغزو، يراجع:
Nettement, P 250.

2 - للمزيد من التوضيح، ينظر: حمدان خوجة، المرآة تعريب العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1975، ص-ص.213-214

3 - نقلت عظام بشرية إلى فرنسا على متن السفينة "لابون جوزفين" «Labon Joséphine» يراجع حمدان، المرآة تعريب، محمد بن عبد الكريم، بيروت 1972، ص ص 369-372.

الأهالي قاوموا التوسع الفرنسي بعنف ابتداء من عشية الاحتلال، فهب السكان يهربون ممتلكات أهالي العاصمة بسهول متيجة ليعملوا على عدم تموين جيش الاحتلال[1] وقطعوا طرق المواصلات داخل البلاد لعرقلة التوسع في الداخل ثم التفوا حول قادة جزائريين سواء في الغرب بالأمير عبد القادر أم في الشرق بالحاج أحمد باي زيادة على التفافهم بالمرابطين المتواجدين في كافة أنحاء البلاد الذين اتحدوا ضد الخطر المتمثل في الفرنسيين وحرضوا القبائل ضدهم وقاوموا مدة طويلة بالرغم من تعاقب الهجمات الفرنسية عليهم.

ومهما يكن فقد فوجئ الفرنسيون بمقاومة القبائل التي أحدثت انعكاسات على نفوس القادة الفرنسيين وعلى نواب البرلمان والشعب الفرنسيين الأمر الذي أدى بالكثير من القادة إلى مراجعة مواقفهم والتشكك في قدرة فرنسا على مواصلة احتلالها مناطق أخرى، فظهر أثر ذلك في المناقشات التي جرت حول سؤال هو: هل يكون من الأفضل الاحتفاظ بالجزائر أم التخلي عنها؟ لهذا عمل قادة الاحتلال على تطبيق بعض الأساليب اللينة بادئ الأمر لتثبيت أقدامهم كأن استبقوا بعض المناصب مثلما كانت عليه في العهد العثماني التركي مثل منصب آغا العرب في الوقت الذي شرع فيه بعض القادة في تجهيز مدينة العاصمة لتكون مقرا رسميا للإدارة في الجزائر أملا في أن تتحكم في أغلب المناطق الجزائرية الأخرى[2].

1 - حمدان، المرآة، تعريب، الزبيري، ص.204

2 - تكونت مؤسسة البناء والتجهيز خاصة بمدينة الجزائر يوم 07-10-1831 يراجع:

وفي داخل البرلمان ارتفعت الأصوات المعارضة لفكرة التوسع داخل البلاد ولبقاء الجيش الفرنسي في الجزائر ونذكر من بين المعارضين الار(Allar) الذي نشر مقالا في أول سبتمبر 1830 قال فيه: إن مصيرنا في الجزائر سيكون مثل ما كان في المستعمرات السابقة، إننا نضيع وقتنا واقتصادنا من أجل أسباب لانهاية لها[1] وكذلك دي صاد (De Sade) الذي دعا إلى أن يحكم الجزائر أهلها شرط أن تربط بين البلدين مصالح اقتصادية ستفيد فرنسا منها أكثر مما تستفيد من الاحتلال[2]

وكيفما كان الحال فقد نتج عن هذه المواقف الضاغطة أن أرسلت الحكومة الفرنسية لجنتين للتحقيق وأن يتداول على القيادة العامة في الجزائر ستة جنرالات من جويلية 1830 إلى 1833 وأن تتردد الحكومة الفرنسية مدة أربع سنوات في تحديد نوع الحكم الذي يناسب الجزائر

5 – الخلاصة

مما تقدم يتبين لنا أن الحملة الفرنسية جاءت في ظروف مناسبة لفرنسا بعد أن سبقتها أحداث أوروبية ومحلية تحكمت فيها ووجهتها علاقات دولية وثنائية. الأمر الذي أدى إلى ردود فعل قوية، سواء داخل الجزائر أم داخل

Gen'y de Bussy De l établ ssemen. français dans la regence d Alger, t 2 F Didot Frère. Paris 1835, P-P 124-125

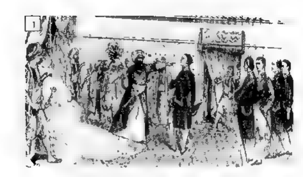
1 نشر هذا المقال بعنوان

Considération sur la difficulté de coloniser la régence d Alger et sur les résultats probables de cette colonisation Sel'mgue, Paris 1830

2 – ينظر P 76 Nettement (A.), op.cit

فرنسا، أم داخل الدول الأوروبية حيث كانت بلاطات أوروبا مؤيدة فرنسا في قيامها بالغزو وكان ذلك لهدف أن يتحول خطر الثورة الفرنسية من أوروبا إلى بلاد بعيدة، خلاف بريطانيا والسلطنة العثمانية اللتان تخوفتا من هذا الإجراء بحكم عوامل كثيرة مست مصالحهما.

وكانت الأطراف الفرنسية مختلفة فيما بينها بين معارض ومشجع وكانت تلك الأطراف هي الجناح الملكي الفرنسي والمثالي المسيحي والليبرالي. وكانت تلك المواقف تضعف وتقوى بفعل عوامل كثيرة منها بداية «المقاومة» الجزائرية التي لم تكن بنفس المستوى عبر أنحاء البلاد. وكيفما كان الحال فقد تمكنت الحملة الفرنسية من تحقيق هدفها على الرغم من ضعف الحكومة الفرنسية، وعلى الرغم مما كان يعرف عن الجزائر من قوة بحرية.





1- مشهد حادثة المروحة من وجهة النظر الفرنسية

2- مقطع من مراسلة الملك شارل العاشر إلى القنصل ديفال

التواجد الفرنسي في بجاية

تمهيد

الهدف من تقديم هذا الموضوع هو نشر وثيقة ليطّلع عليها الدارسون التي تبين لنا جانبا من السياسة الفرنسية المتبعة في احتلالها للجزائر[1].

احتلال بجاية

من المعلوم أن الحملة الفرنسية تمكنت من احتلال الجزائر العاصمة ثم وجهت حملات أخرى قصد احتلال نواحي البلاد. ومن المناطق التي أعطتها أهمية كبيرة للسيطرة عليها في قطاع الشمال القسنطيني منطقة بجاية

والواقع أن منطقة بجاية لم تكن موضع اهتمام الفرنسيين وحدهم فقط، وإنما كانت من النقاط الإستراتيجية التي جلبت اهتمام دول وجمهوريات حوض البحر المتوسط. إذ أنه خلال مرحلة الاحتلال الأولى وخلال المفاوضات الدولية حول البقاء أو الجلاء الفرنسي عن الجزائر راجت فكرة لمشروع قدمته بعض دول حوض البحر المتوسط ومحتواه: ألاّ تكون الجزائر من نصيب فرنسا وحدها وإنما تقسم إلى مقاطعات، على أن تخضع كل منها إلى قوة أوروبية معينة وتكون على الوجه الآتي تكون العاصمة من نصيب فرنسا. وتُضم عنابة إلى

1 – مع الأسف لم يف رئيس تحرير مجلة الثقافة بنشر نص الوثيقة بحسب المقال مثلما كان الاتفاق. ينظر الثقافة، الصادرة عن وزارة الثقافة، العدد 100، الجزائر 1988، ص ص 73 81

ممتلكات النمسا. وسكيكدة إلى سردينيا وجيجل إلى نفوذ البابا ووهران إلى أسبانيا وأرزيو إلى إنجلترا على أن تكون بجاية من نصيب توسكانة[1].

ولكن هذه الفكرة لم تلق من التأييد ما يمكنها من النجاح خاصة من طرف فرنسا التي عملت بقوة لإبعاد اهتمام أي طرف أوروبي في بالجزائر. مثلما عملت على عدم إثارة قضية الجزائر ونقلها إلى قضية دولية

ويعود اهتمام السلطة الفرنسية بمنطقة بجاية إلى أيام سابقة عن الاحتلال من ذلك أن الشركة الملكية الفرنسية سبق لها أن استوردت خلال الفترة الممتدة من سنة 1816 – 1827 كميات هائلة من المواد التجارية من شمال قسنطينة وكانت في مقدمتها الحبوب والجلود والصوف والزيت عن طريق الموانئ الساحلية كعنابة وبجاية[2]

وفور الاحتلال عام 1830 تضاعف اهتمام السلطة الفرنسية بمنطقة بجاية بل ذهب بها الأمر إلى اعتبار مدينة بجاية بمثابة مضيق جبل طارق

وحسب رأي فيرو(Féraud) فإن شابا واسمه مراد قدم إلى دي بورمون يوم 3 أوت 1830 بصفته القائد على تلك الناحية وعرض مساعدته لاحتلال بجاية فما كان من القائد العام إلا أن وجه سفينة حربية إلى المدينة. لكن السكان تمكنوا من قتل هذا الشاب وصد هذه الحملة

1 لمزيد من معلومات يراجع

Serres (J.), la politique turque en Afrique du Nord sous la monarchie de juillet, Paris 1925. P 34

2- Edouard Solal Philippeville et sa Région (1842-70), Alger S.D., P 36

ولم تُرِص ذلك الحكومة الفرنسية فوجهت النقيب لاموريسيير (Lamorcier) بمساعدة أحد أفراد سكان المنطقة واسمه بوستة ليتعرف على مواطن الضعف للمدينة قصد احتلالها فحصلت له معلومات تأكد من خلالها أنه بإمكان حملة فوق ألف محارب أن تحتل المدينة وبالفعل وجهت حملة يوم 4 سبتمبر 1833 وعززت بقوة بحرية انطلقت من طولون بقيادة تريزيل (Trizel) تمكنت هذه الحملة من الدخول إلى المدينة وتأسيس قيادة إدارية برئاسة لواريه (Loisier) واستلم ديفيفيه (Divivier) القيادة الإدارية يوم 5 أكتوبر 1833 وهو الذي حاول التفاوض مع شيوخ المنطقة[1]

ولم يهدأ بال الجزائريين في هذه المنطقة إلا بعد أن حملوا السلاح بتحريض من الشيخ علي بن عيسى[2]

ومن أهم القبائل والأسر التي تصدت للفرنسيين وشكلت القوة والمنعة بنو عادل توجا (توجة) وأولاد امقران وبنو عمران وبنو كسيلة وبني ورغيس

1 Charles Féraud. Hist. des Villes de Constantin (Bougie), Arnolet Constantine 1869 P-P 236-255
Cornulier (L.) la prise de Bonne et Bougie (1832-1833), Paris 1895. P-P 301-305-333

2 هذه شخصية ذات نفوذ كبير في شرق الجزائر وحتى في تونس للمزيد يراجع
Hamdan (K.) Le miroir Trad par H D Goetschy Paris 1833 P P 10-13
وكذلك مذكرات علي ابن حمدان خوجه
Souvenir d'un voyage d'Alger à Constantine à travers les montagnes trad. De Sauley (1838).
ويرجع كذلك. شلوصر.ف قسنطينة أيام أحمد باي (1832 1837) ترجمة أبي العيد دودو، ش و ن ت الجزائر 1977 ص 21

وبنو بومسعود وبنو حسين وبنو سيمول وبنو شقفة وأولاد عبد الجبار وبوبحماد وصنهاجة وزاوية شرفة ومسيمسة وبنو بويوسف وبنو عمروس وبنو وجان وبنو قرارم وبنو خراعيب وبنو ايدجر وبنو حبيس وأولاد عليو أولاد عمريو ومرايا (المرايس) وحمدان وأولاد تامريدت وبنو الحاج دحمان وعنابي وبنو إسماعيل وعجيسة وبنو بوبكر وبنو إبراهيم وبنو سليمان واربشة وأولاد الخالف وبنو ورتيرن وبنو معدت وبنو شبانه وبنو محلى وملاحة والمسولا وتيعمرين وغيرهم[1] وكان مجموعهم حوالي سبع وعشرين قبيلة عددهم حسب الإحصاءات التي قدمها رجال الاحتلال 22080 فردا. وقد تطور هذا العدد فوصل سنة 1866 حوالي 88 ألف[2].

ومن أشهر الشخصيات التي قاومت الفرنسيين منذ البداية سعد وليدو رابح الذي عقدت معه السلطة الفرنسية معاهدة سلام (سنتعرض إليها في حينه) ثم تولى بعده أخوه الشيخ أمزيان الذي قاد «المقاومة» بكل قوة وحسبما تشير إليه بعض الوثائق أن قوة سعد وليدو رابح كانت تبلغ 300 فارسا[3] وإن كنا ذهبنا إلى الاعتقاد بأن قوة هذا الشيخ أكثر من هذا العدد، بحسب عدد سكان هذه الناحية، وإنما قد تكون هذه القوة هي التي كان يزود بها الحاج أحمد باي خاصة وأن هذه الإحصائية قدمت في إطار إحصاء قوات أحمد باي.

1- A.M.G.. H 226

2- Charles Féraud Hist. des Villes. P 236

3- A.M.G., H 226

ولم تمنع تلك «المقاومة» الفرنسيين من إقامة جهاز إداري بالمدينة التي عرفت تطورا كبيرا في مختلف مجالات الحياة؛ فمن الناحية العمرانية توسعت المدينة لتستوعب 3000 ساكنا منهم 1300 أوروبي[1].

ثم انكبت الإدارة الفرنسية على توسيع الميناء في المدينة وكذلك في تعبيد طرق المواصلات لربط بجاية بسطيف ابتداء من سنة 1849، وتوقفت الأشغال إثر حرب القرم 1853. ثم استأنفت الأشغال سنة 1856[2].

ومن جانب آخر فقد أنشئت محافظة مدنية في مدينة بجاية يوم 21 نوفمبر 1848 وبمرسوم مؤرخ يوم 10 ماي 1850 التحقت بجاية إداريا بقسنطينة وفي عام 1858 عوض النظام الإداري بها من محافظة مدنية إلى بلدية حيث تشكل فيها مجلس بلدي[3]

وبذلك تكون بجاية قد دخلت علاقات من نوع جديد في ميادين كثيرة خاصة في الميدان الاقتصادي مع بجاية وسطيف وقسنطينة. ومع بلاد أخرى عن طريق البحر. والمعروف عن ناحية بجاية أنها غنية بمواد كثيرة منها: الزيت والتين والحبوب والبرتقال والليمون والأخشاب والملح والخضر بجانب المواد الصناعية كالحديد واستخراج ملح البارود.

1 Charles Féraud Hist. des Villes.P 37

2 - المصدر نفسه ص 40 41

3 - - كان عدد منازل مدينة بجاية عشية الاحتلال 200 منزلا، للمزيد يرجع كل من

- Recueil, des Notices et mémoires Province de Constantine, Vol 31, PP -98-118
- Féraud, Hist. des Villes

ومن جانب آخر فقد صارت بجاية قلعة لانطلاق القوات الفرنسية في حملاتها الواسعة، نذكر منها حملة بادو على رأس قوة 6926 محارب ماي - جوان 1847 ضد سكان الضواحي من بجاية[1]. وكذلك حملة دي صال على رأس قوة 5562 محارب في ماي - جوان 1849 ضد بني سليمان وبني عباس وبني وجان وبني ميكة وبني خالد وبني ميمون[2]. وحملة سانت آرنو سنة 1849، وغيرها من الحملات الكثيرة. ولنا أن نذكر أن احتلال مدينة جيجل كان انطلاقا من بجاية[3]

وبهذا تكون السلطة الفرنسية قد وظفت أكثر من وسيلة لإخضاع المنطقة كالوسيلة الحربية والطرق العمرانية وكذلك طرق الدهاء والسياسة من هذا اللون ما تم من معاهدة سلام بين الشيخ سعد وليدو رابح والسلطة الفرنسية ونحاول التعرف عنه من خلال العرض هذه الوثيقة

1 تقرير قائد أركان الحرب، في جويلية 1847. أرشيف وزارة الحربية فانسان، H. 211

2 - المصدر نفسه

3- St ARNAUD, les premières années de l'Algérie française, C F E B 1978 P P 68-69

نص "المعاهدة"

هذه ترجمة لنسخة طبق الأصل من "معاهدة" سلام تمت بين السلطة الفرنسية والشيخ سعد وليدو رابح في أفريل 1835. وقبل عرضها يحسن بنا أن نلاحظ أنه لا يمكن مثلما سبق أن قلنا في حديثنا عن "معاهدة" التوافر والرمالة المنشورة في مجلة الثقافة العدد 88. أنه لا يمكن تسمية هذه "المعاهدة" إلا "بعهد ولاء" أو اتفاق؛ وذلك لعدم توفر المواصفات القانونية فيها؛ لأنها لم تتم بين دولتين، أي أن أحد طرفيها ليس شخصا قانونيا، لأن الشرعية القانونية في هذا التاريخ هي للحاج أحمد باي، أو للأمير عبد القادر. ومع ذلك أصبحت تلك الاتفاقية بين الطرفين و لم تطبق مثلما أكد ذلك لاموريسيير نفسه[1].

والملاحظة الثانية هي أن هذه الاتفاقية وضعت على نسختين الأولى تتشكل من ست مواد ومادة إضافية والاتفاقية مؤرخة في 8 / 4 / 1835 وممضاة من طرف رجال من السلطة الفرنسية وهم لاموريسيير وجيرو ولواري ومن طرف

1 – قدم لاموريسيير يوم 30 أفريل 1835 تحليلا عن وضعية بجاية بعد المعاهدة. يراجع أرشيف وزارة الحربية. فانسان. H.32 إذ ذكر لاموريسيير في هذا التحليل. أنه منذ 21 أفريل لم يظهر أثر للشيخ سعد وليدو رابح. ولكن يوم 24 أفريل وقع هجوم بالرصاص على موقع للفرنسيين من طرف قبيلة بني عادل. كما تعرض بعض رجال الاحتلال إلى هجمات واغتيالات. الأمر الذي دفع برجال الاحتلال إلى تجنب الدخول إلى المرتفعات و الجبال، وإنما يجب الانسحاب والعودة إلى المدينة. واستمر الوضع هادئا إلى غاية يوم 26 أين قتل ثلاثة من رجال جيش الاحتلال بأم أغوراي.

الشيخ مدادي بالنيابة عن الشيخ سعد وليدو رابح. أرسلت من طرف لاموريسيير إلى الحاكم العام للمصادقة عليها

بينما النسخة الثانية تتكون من تسع مواد ممضاة من طرف نفس الموقعين الفرنسيين على النسخة الأولى. بالإضافة إلى توقيع وختم الحاكم العام الكونت ديرلون. ومؤرخة في يوم 9 أفريل 1835 ببجاية. بالإضافة إلى ذكر ختم الشيخ وليدو رابح مما يؤكد أن هاتين النسختين قد نقلتا عن نسخة أصلية لم نتمكن من العثور عليها.

ومن أقوى الاحتمالات أن الاتفاقية كتبت بلغتين عربية وفرنسية، مثلما أشير في هذه النسخة. مثلما جرت عليه العادة في المعاهدات والاتفاقيات التي تمت بين رجال الاحتلال الفرنسي والأطراف الجزائرية. ولكننا لم نتمكن من الاطلاع على النسخة العربية.

جاء فيها بما يمكن ترجمته: معاهدة سلام[1] بين الجنرال ديرلون عضو في مجلس النواب والحاكم العام للقوات الفرنسية بشمال إفريقيا، وبين سعادة الحكيم، والشجاع الشيخ وليدو رابح

إن العقيد لاموريسيير مدير القوات والمفوض بكل الصلاحيات من لدن الحاكم العام والشيخ سعد وليدو رابح، يتفقان على ما يلي.

1 – أرشيف وزارة الحربية فانسان. H. 32

المادة الأولى:

يدوم السلام والأمن بين الفرنسيين والقبائل في كل ضواحي مدينة بجاية. وابتداء من تاريخ التوقيع على هذه المعاهدة تنتهي العداوة والمصادمات بين وحدات الجيش الفرنسي المتحصنة في بجاية وكل القبائل الخاضعة وكل التي ستخضع لنفوذ الشيخ سعد وليدو رابح

المادة الثانية

الطرفان المتعاهدان ملزمان بكل ما في وسعهما وفي حدود نفوذهما بالعمل على فرض الأمن والسلام. على أن يحلا بمحبة كل القضايا التي ستظهر فيما بعد

المادة الثالثة

على أن تبقى هذه القوات الفرنسية تحتل مدينة بجاية ومواقعها الإستراتيجية ومراكزها الداخلية بما فيها كل المناطق التابعة لهذه المدينة والممتدة من الساحل الأمامي للمدينة، إلى غاية وادي بومسعود. ويمكن هذه القوات أن تقوم بأشغال التهيئة العمرانية التي من شأنها أن تكون مفيدة للطرفين وهما القوات الفرنسية والأهالي.

المادة الرابعة.

الحكومة الفرنسية راغبة في إعطاء الدليل انطلاقا من أوضاعها لصالح كل القبائل المسمة الخاضعة أو التي ستخضع للشيخ سعد وليدو رابح على أن تعلن الحكومة عن التزامها بالاحترام لكل المسلمين الأصدقاء الذين سيقصدون مدينة بجاية بحيث يكون بإمكانهم الاستقرار في أمن كامل وتتولى السلطة

الفرنسية حمايتهم والمحافظة على أملاكهم ليمارسوا شعائرهم الدينية بحرية وفي احترام كامل

المادة الخامسة

بإمكان كل القبائل والمسلمين الأصدقاء الدخول والخروج والتحول بحرية في مدينة بجاية وذلك وفقا للأوامر المعطاة، ومن أجل أمن المدينة والمراكز الأمامية. وأن أسواق المدينة ستفتح للقبائل على أن تضمن هم الحماية لبيع منتجاتهم الفلاحية من الحبوب والمبيعات التي يأتون بها

المادة السادسة

يسمح الحاكم العام لتاجر يعينه الشيخ سعد وليدو رابح بالسكن في مدينة بجاية على أن تكون من صلاحياته تسوية كل القضايا المتعلقة بالتجارة التي ستظهر بين القبائل والفرنسيين والأوروبيين. والتحادث مع السلطة الفرنسية في هذا الشأن باسم الشيخ سعد وليدو رابح

المادة السابعة

للقبائل الصديقة أن تعقد معاهدات على نفس الخط الذي يتبعه التجار الفرنسيون في إطار العلاقات التجارية مع الخارج

المادة الثامنة

وفي حالة ما إذا رفضت بعض القبائل المتوطنة بضواحي بجاية الاعتراف بهذه المعاهدة والخضوع لها، وأعلنت عداوتها ضد أحد الطرفين المتعاهدين يكون على الشيخ سعد وليدو رابح الانضمام إلى الصف الفرنسي ضد هذه القبائل من

تهديدها للسلام، ومن أجل استتباب الأمن الذي نصت عليه هذه المعاهدة وعلى فرنسا من جهتها الانضمام إلى صف الشيخ ولصالحه.

المادة التاسعة

تدخل هذه المعاهدة حيز التطبيق وللكولونال الهندسة العسكرية كامل الصلاحيات في هذا الشأن. وأن أي أمر لا يكون ساري المفعول إلاّ بعد أن تتم مراجعته وموافقة الحاكم العام.

كتبت على نسختين ببجاية يوم 9 أفريل 1835.

توقيع لاموريسيه وضع الختم سعد وليدو رابح

يصادق الحاكم العام على هذه المعاهدة التي تبقى ضرورية بين الطرفين المتعاهدين

كتبت في الجزائر يوم (؟) أفريل 1835 توقيع الكونت ديرلون

وفي الأسفل ختمه.

عن نسخة طبق الأصل / قائد أركان الحرب العام.

توقيع جيرو

الخلاصة

مما تقدم يمكن أن نخلص إلى القول إن الاحتلال الفرنسي لبجاية كان ضمن المشروع الواسع والهادف لاحتلال الجزائر كلها. وقد اعتمدت السلطة الفرنسية وسائل كثيرة لتحقيق ذلك الهدف وكان من أهمها القوة المسلحة وعقد "معاهدة" مع أقوى مشايخ المنطقة قصد كسبه إلى الصف الفرنسي وبالتالي قصد القضاء على المقاومة. ويفهم من هذه "المعاهدة" أن من أهدافها توسيع نفوذ الشيخ سعد وليدو رابح، وذلك بإخضاع أغلب القبائل له "القبائل الخاضعة أو التي ستخضع"

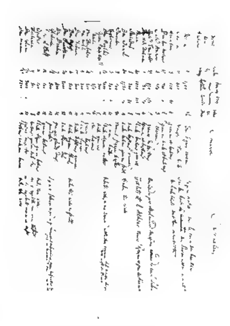
أيضا أن هذه "المعاهدة" لم تخدم إلا المصالح الفرنسية. لعل هذا من الأسباب التي دفعت هذا الشيخ وغيره من الجزائريين في هذه الناحية إلى عدم الالتزام ببنودها حيث كانت «المقاومة» واسعة شملت معظم المناطق وطويلة الأمد.



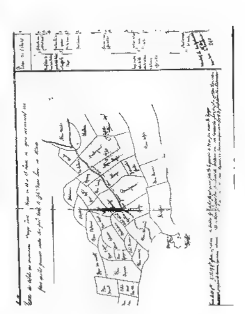
المصادر والمراجع المعتمدة

1. A.M.G H226, H 211.
2. Ali Efendi Souvenir d'un voyage d'Alger à Constantine Trd de Saulcy. 1838
3. Charles Féraud, H.st. des Villes de Constantine (Bougie), Arnolet, Constantine 1869
4. Cornulier, La prise de Bonne et Bougie (1832 1833), Paris 1895
5. Edouard Solal, Philippe ville et sa Région (1847 70), Alger (S D)
6. Hamdan Khodja, Le miroir Trad. par H D / Goetschy Paris 1833
7. St ARNAUD. Les premières années de l'Algerie française, C F E B 1978
8. Serres (J) La politique turque en Afrique du Nord sous la monarchie de juillet Paris 1925

صفحة من معاهدة سعد وليدو رابح



أهم الأعراش والقرى والمنتجات التجارية لمدينة بجاية أثناء الدخول الفرنسي



أهم الأعراش المحيطة ببجاية أثناء الدخول الفرنسي

معاهدة الدوائر والزمالة

(16 جوان 1835)[1]

1 – نشر هذا المقال في: الثقافة، العدد 88، وزارة الثقافة، الجزائر 1985، ص–ص 123-137.

أهدف من تقديم هذا الموضوع إلى عرض وثيقة هامة تتعلق بجانب من السياسة الفرنسية. وبموقف شريحة معينة من المجتمع الجزائري تجاه التوسع الفرنسي، وأعني بهذه الوثيقة "المعاهدة" التي تمت بين السلطة الفرنسية وقبيلتي الدوائر والزمالة. هذه المعاهدة التي لم تحظ بدراسة وافية[1] وعليه أتناول هذا الموضوع بناء على النقاط الآتية

1– التوسع الفرنسي ناحية الغرب الجزائري

2 – موجز عن أوضاع الريف الاجتماعية في قطاع الغرب الجزائري

3 – الجهاد ضد التوسع الفرنسي

4 – معاهدة الدوائر والزمالة

أولا: التوسع الفرنسي ناحية الغرب الجزائري:

من المعروف أن الحملة الفرنسية تمكنت من تحقيق هدفها باحتلال مدينة الجزائر العاصمة (1830) في وقت كانت فيه مملكة شارل العاشر ضعيفة في مختلف الجوانب[2]. وفور سقوط العاصمة وجهت حملات عسكرية شرقا وغربا

1 – ينظر

Walsin-Esterhazy. Notice historique sur le Makhzen d'Oran. Oran 1849

2 – اسمه الكونت دارتوا (C.d'Artois) وهو أخو لويس الرابع عشر والثامن عشر، تولى العرش يوم 1824/9/16 عن عمر 77 سنة، وتلقب بشارل العاشر. لم يكن محبوبا من طرف عامة الفرنسيين وأهم التيارات المناهضة في البلاد.للمزيد من المعلومات يرجع إلى: تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ترجمة أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع، ط 5، دار المعارف المصرية (؟)، ص139.وللباحث أن يتساءل عن سبب انتصار

قصد الاستيلاء على ضواحي البلاد. ففي قطاع الغرب الجزائري توجهت حملة عسكرية إلى مقاطعة وهران تمكنت من احتلال المرسى الكبير. وبعدها استدعيت إلى العاصمة. ووجهت حملة أخرى إلى ناحية الغرب فسلم باي وهران على إثرها مفاتيح المدينة إلى رجال الحملة الفرنسية[1].

الحملة الفرنسية على وحدات الجزائر سياسيا في وقت كانت تعيش فيه فرنسا هزات عنيفة في حياتها الاجتماعية والسياسية والعسكرية وحتى الإدارية. إنني لا أرى سبب الانتصار في قوة الجيش الفرنسي بقدر ما يعود سبب ذلك إلى:

1-السند الأوروبي، لأن الحملة كانت أوروبية أساسا 2- ضعف وحدات الجزائر الذي كان يمثل ضعف الدولة العثمانية التي صارت ولاياتها مفككة كالفسيفساء متناثرة 3- مؤامرة الكنيسة المسيحية 4- دعم البرجوازية الفرنسية والبيوتات المالية الأوروبية الساعية إلى مزيد من السيطرة على الأسواق 5-الظروف الدولية المناسبة للاحتلال. يعني هذا أن الجزائر كانت تمثل قوة المسلمين في حوض البحر المتوسط في الوقت الذي كانت تمثل فيه فرنسا قوة المسيحيين في هذا الحوض. فالصراع كان حضاريا من جانب آخر.

ومن جانب آخر كان على باي وهران وهو حسن أن يستسلم لرجال السلطة الفرنسية وذلك تحت ضغط جملة من العوامل أهمها وقوف أقوى التشكيلات السكانية بالمنطقة ضده كرد فعل لطبيعة وسلوك النظام العثماني تجاههم الذي ولد ردود فعل انفصالية. بجانب اقتناعه من أنه غير كفء لمواجهة جيش الاحتلال خاصة وأن سنه تقدم إلى الشيخوخة فكان لزاما عليه العمل بأحد الحلول الثلاثة: 1- إما الفرار من المدينة. 2- وإما تسليم المدينة إلى الفرنسيين. 3- أو وضع نفسه تحت حماية أقوى القبائل الجزائرية فأخذ بهذا الحل الأخير بأن أرسل إلى محي الدين والد الأمير عبد القادر طالبا الحماية، إلا أن معظم رجال بني هاشم وفي مقدمتهم "الأمير" عبد القادر رفضوا تقديم الحماية وقبوله في

ومن ثم شرع القائد الفرنسي بوايه (Boyer) ابتداء من أوت 1831 في تنظيم الأمور قصد التوسع أكثر، والسيطرة تجاريا واجتماعيا وإداريا على هذا القطاع

ومن جانب الجزائريين كانت الاستعدادات حثيثة للجهاد حيث قام الأمير عبد القادر بمعية الشيوخ من حوله بحركة حربية دلت على عمقها ومسايرتها لمتطلبات العصر إذ استطاع أن يؤسس نظام حكم هادف إلى تكوين دولة قوية خلال مدة قصيرة وذلك بفضل سكان المنطقة الذين هبوا والتحموا بزعيم هذه الدولة الفتية لدرء خطر خارجي هدد كيانها. وتمثل ذلك الالتحام في مواقف عديدة بدايتها البيعة ثم الوقوف صفا واحدا في ميدان المعارك. الأمر الذي جعلنا نعتبر هذه المبايعة، وهذا الالتفاف صفا واحدا البداية الصحيحة للمقاومة "الوطنية" بل البداية القوية للحركة الوطنية الجزائرية في صورتها الواسعة.

وقد تجاوب الأمير عبد القادر مع هذه الروح "الوطنية" العالية بأن سخر كل إمكاناته، وقسم مواطن نفوذه إلى أقاليم وعين على كل منها من كانت

صفوفهم فما كان على الباي إلا أن استسلم للفرنسيين. ينظر محمد بن عبد القادر (الأمير) تحفة الزائر، ج1 المطبعة التجارية الإسكندرية 1903، ص103-104 وكذلك تشرشل، ش هـ، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة، أبو القاسم سعد الله،ش.و.ن.ت والدار التونسية للنشر، 1974، ص. 50 -52.

هذه الوظائف تطلبهم لا من كانوا يطلبوها. ووجه نداءات إلى القبائل قصد حمل السلاح للجهاد[1].

وقد لبت أغلب القبائل بالمنطقة النداء وأعلنت عن رغبتها الخالصة في الجهاد ضد "الكفار" وكان من بين تلك القبائل الدوائر والزمالة وهما موضع الوثيقة التي سنقدمها

إذن التزمت تلك القبائل الشعور "الوطني" وقادت «مقاومة» عنيفة أحدثت ردود فعل قوية في الوسط الفرنسي خاصة الرسمي منه. والدال على ذلك تعيين دي ميشال (Desmichels) مكان بوايه حاكما على وهران في فيفري سنة 1833. وأيضا ما وقع بجلسات البرلمان الذي طالب أعضاؤه بضرورة الانسحاب الفوري من الجزائر. إذ كتب ذي صاد يوم 1834/4/28 وهو أحد النواب يقول بما أمكن ترجمته: يوجد في الغرب الجزائري 100 ألف محارب، يمكن للأمير أن يتولاها بنفسه، فيشكل بها خطرا عليا لأنه الشخص الوحيد المناهض لوجودنا[2].

ويفهم من خلال التصريحات الكثيرة لرجال السلطة الفرنسية أن قطاع الغرب الجزائري على جانب كبير من الأهمية بتشكيلاته الاجتماعية وثرواته الطبيعية وبمنطقه الحساسة

1 - خاصة نداء 22 نوفمبر 1832، ينظر: تشرشل.ص.ص.60

2- Cokenpot (Ch.) Traité Desmichels, Ernest Leroux, Paris 1924 p. 03

ثانيا موجز عن أوضاع الريف الاجتماعية بقطاع الغرب الجزائري

كان سكان الريف في قطاع الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني كما هو الحال في كامل أنحاء الوطن يشكلون قاعدة الهرم الاجتماعي من حيث الكثرة إذ كانت نسبتهم تفوق 90 % من مجموع السكان[1].

ويتميز الريف في قطاع الغرب الجزائري بسكان السهول وهم حديثو الاستقرار وبسكان الجبال وهم الأقدم من حيث الاستقرار

ويتباين سكان السهول عن سكان الجبال في كون الأوائل يعتمدون أساسا على السيف /أجواد/ وبخاصة منهم قبائل المخزن وفي مقدمتهم الزمالة والدوائر المعنيين بالموضوع. في حين كان سكان الجبال غير قبائل المخزن يستمدون قوتهم أساسا من الدين والعراقة أشرافا كانوا أو مرابطين (الصالحون) (عن صدق أو عن وهم).

ولهذا كان من الطبيعي أن يحدث بينهم صدام بفعل نظرة كل طرف للآخر، فقبائل السيف /الأجواد/ المخزن/ كانوا ينظرون إلى المرابطين بشيء من الدناءة هادفة إلى جمع الثروة والمتسترة بقناع الدين والادعاء بالشرف. أما المرابطون فقد كانوا يتهمون الأجواد بالتهور والعنف قصد النهب[2]. وقد استفادت

1 - تضاربت الأرقام حول عدد السكان الجزائريين إذ كانت تتراوح ما بين 10 مليون مثلما قال حمدان بن عثمان خوجة في كتابه: Le miroir. Goetschy, Paris 1833, p.320.

وما بين 3 ملايين عند ياكونو

Yacono, " Peut- on évaluer la population de l'Algérie vers 1830 " , in. Revue africaine, 1954, p-p 277-307

2 تشرشل، حياة الأمير، ص 41

السلطة الفرنسية من هذا الصدام بأن عملت على استمالة الكثير من القبائل إلى صفها. ويتساءل الباحث عن الأسباب التي دفعت تلك القبائل إلى التعامل مع الفرنسيين. ففي رأينا أن أهم العوامل هي

1. سياسة رجال الاحتلال القائمة على التفرقة بين الصفوف الجزائرية
2. الإغراء الذي أوهمت به السلطة الفرنسية بعض الشيوخ، ومفادها أن فرنسا ستترك البلاد لأهلها
3. طبيعة التكوين للقبائل، إذ أن هناك قبائل المخزن الاصطناعية التي كانت تعتمد على قوة السيف /الأجواد/ وهناك قبائل عريقة تعتمد أساسا على الجانب الروحي والشرف. فطبيعة النزاع فيما بينها أدى إلى ميل بعضها إلى الصف الفرنسي
4. عامل تاريخي ويتمثل في أن بعض القبائل كانت موضع السيادة على رقعة من الأرض بفعل السياسة العثمانية المؤازرة لبعض القبائل على حساب قبائل أخرى. فلما جاء الاحتلال تعامل بعضها مع القوة الفرنسية نكاية في القبائل الأخرى مثل الموقف الذي التزمت به الدوائر والزمالة
5. عامل الاختلاف بين الطرقيين الذي أدى إلى انقسام الصف، مثلا التيجانية وفروع من الشاذلية التي ثارت ضد قبائل الأمير.

6. شعور بعض القبائل بقدرتها على القيادة وتحرير "الوطن" دون أن تعلن خضوعها لقبيلة أخرى، بل رأت نفسها على حق شرعي في قيادة «المقاومة» "الوطنية" وفرض نفسها على القبائل الأخرى أن تخضع لها
7. تجاذب النظرة الضيقة لبعض القبائل التي رأت في الانضمام إلى صف فرنسا تحقيق مصالحها

وبالرغم من هذا التباين المحكوم إلى الظروف التاريخية والسياسية وحتى الجغرافية فإن المستنتج هو أن الطرفين هما اللذان كانا يوجهان مستوى الفكر الجزائري وإن كان يشهد للقبائل المرابطية بالدور الأكبر في إعلان ومواصلة الجهاد المقدس، ومنهم قبيلة بني هاشم بقيادة الأمير عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى بن مختار.

ومن القبائل التي يمكن أن يفسر سبب ميلها إلى سلطة الاحتلال بمثل هذه العوامل هي كل من الدوائر والزمالة اللتان لعبا أدوارا هامة في العهد العثماني بممارستها للسلطة على القبائل الرعوية وجمعها للضرائب منها[1].

---

1 – لمزيد من التعرف على دور هذه القبائل وأوضاعها الاجتماعية والاقتصادية يراجع: ناصر الدين سعيدوني "دور قبائل المخزن في تدعيم سلطة البايلك في الجزائر"، الأصالة، عدد 32، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر 1976، ص46 63، وقد نشر هذا المقال في كتابه دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الحديث وكذلك كتابه النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية،(1800-180) ش.و.ن.ت، الجزائر 1979

ومن هذا الوضع الاجتماعي لهذه الشريحة من مجتمع الريف في قطاع الغرب يمكن التعرف على موقفها من الاحتلال الفرنسي. هذا الموقف الذي سنعرف جانبا منه من خلال وثيقة المعاهدة المعنية بالتقديم

ثالثا: الجهاد ضد التوسع الفرنسي

هذا الجهاد الذي فرضته ظروف الاستعمار الفرنسي بدافع الحفاظ على الأرض وحماية الدين والكرامة، حيث هبت معظم التشكيلات الاجتماعية أسر وعشائر وقبائل في عصبية حادة قائمة على رابطتين هما رابطة الدم ورابطة الدين /الملة المحمدية/ حيث تطورت هاتان الرابطتان وظهرتا في رابطة قوية هي ما يعبر عنها في العصر الحديث برابطة الوطن القائمة على الشعور المشترك والمصير مشترك. ومن ثم أصبحت العصبية عند أولئك السكان نمطا سياسيا ومبدأ مقدسا. فالتعصب هنا خدمة للحق ومحاربة للباطل "الكافر"

والذي يهمنا في هذا البحث هو قبيلة كل من الزمالة والدوائر اللتين عرفتا بهذين الاسمين نظرا للأدوار التي كانتا تقومان بها[1] خدمة للنظام التركي العثماني العسكري والإداري والاقتصادي، إذن فهي قبائل مخزنية ضطلعت اكتسبت حظوة كبيرة من لدن رجال النظام العام، تمكنت حتى

1 الدوائر والزمالة خليط من أجناس، كانوا في خدمة البايات حيث كانوا يقومون بخدمات في دورة الجباية تسمى (دوائر) ويحملون أثقال العسكر ... مالية) عن ... ج 1، ص 138

موالية أراض شاسعة استقرت عليها وتكامل كيانها بتكامل النظام العثماني نفسه بحكم المصالح المتبادلة

وبعد مبايعة عبد القادر أميرا على البلاد وجه نداء إلى كل القبائل الجزائرية قصد الانضمام إلى صفه للقيام بالجهاد المقدس، فلبت الكثيرات منها النداء ورفض البعض ذلك ومنها

- قبيلة عبيدة بالشلف برئاسة شيخها سيدي العريبي
- بنو انجاد برئاسة شيخها العماري

محمد بن نونة الذي ادعى حكم تلمسان باسم سلطان المغرب

- قبائل المخزن برئاسة شيخها مصطفى بن إسماعيل

ومن مظاهر ذلك الرفض الامتناع عن دفع الضرائب وإعلان الحرب ضد الأمير والانضمام إلى فرنسا. وعلى ما يبدو أن موقف هؤلاء كان في البداية محكوما بنظرتهم تجاه الأمير عبد القادر على أساس أنه من المرابطين الذي يهدد مصالحهم. وإلى موقعهم ومركزهم الذي كان موضع عز في العهد العثماني وإلى التأثر بما كان يروج له خير الدين نائب الباي أحمد حاكم تونس من أخبار مفادها أن فرنسا لن تتدخل في شؤون الجزائريين وفي عاداتهم وتقاليدهم ودينهم، وأن إدارة البلاد ستكون من حق مشايخ المنطقة

1 الملاحظ أنه بمجرد أن سقطت مدينة العاصمة أعلن قسم كبير من سكان تلمسان ولاءهم للسلطان المغربي فقبل السلطان ذلك على الرغم من معارضة علماء فاس، وبعث السلطان مولاي عبد الرحمن ابن أخيه علي، حيث استقبل من طرف قسم كبير من سكان المدينة وضواحيها خلاف الكراغلة وقبائل الدوائر والزمالة الذين أعلنوا رفضهم هذا الولاء

ولكنه سرعان ما تراجع شيوخ المنطقة عن موقفهم خاصة حين أدركوا نوايا السلطة الفرنسية، فمالت الكثير من القبائل إلى صف الأمير عبد القادر والترمت العمل بمخططاته القائمة أساسا على الجهاد وعلى بناء دولة وعلى مقاطعة الأسواق الفرنسية؛ إذ أنه سبق للأمير أن أرسل إلى الشيوخ والمرابطين يحثهم على تحريض السكان وإقناعهم بعدم ممارسة التجارة في الأسواق التي هي تحت النفوذ الفرنسي. وبذلك تمكن الأمير من تحويل الشعور بالرغبة في التجارة إلى الشعور "بالوطني" وبالدفاع عنه.

وكان الأمير يهدف من وراء عملية المقاطعة التجارية إلى فرض حصار مدمر لإضعاف قوة فرنسا في الجزائر وهذه الإستراتيجية سبق وأن طبقها كثير من

الفرنسي فتدخل القائد العام كلوزال عن طريق قنصل فرنسا بطانجة (M Delaporte) دي لابورت كي يحصل على منع السلطان من القيام بإخضاع هذه القبائل ثم أرسل من جهته إلى السلطان العقيد أوفراي (Auvray) لمنع السلطان من تحقيق مشروعه. ثم جهز كلوزال حملة على تلمسان، ولما فشل فتح باب التفاوض مع باي تونس قصد بيع مقاطعة الغرب له للمزيد من المعلومات يراجع Bernard,Augustin. L'Algérie, T II, Plon 1930 وكذلك التميمي عبد الجليل "محاصرة الحملة التونسية على وهران 1831"، المجلة التاريخية المغربية، عدد5 ، تونس 1976، ص5-19.

القادة ومنهم نابليون بونابرت حين فرض الحصار القاري على بريطانيا (1804 1811)[1].

وهو ما لم تكن ترغب فيه السلطة الفرنسية لهذا قام رجال جيشها بتوجيه حملة بقيادة دي ميشال في 5 أوت 1833 قوامها 3000 محارب مزودة بثلاثة مدافع ضد قبيلتي الدوائر والزمالة للانتقام منها على ما التزمت به من حصار ضد المصلحة الفرنسية.

وقد حققت الحملة الفرنسية شيئا من الانتصارات خاصة في البداية لأن النجدة من قوات الأمير وصلت في الوقت المناسب وكان هو شخصيا على قائدها

ولما كان موطن القبيلتين عرضة لخطر دائم بحكم قربهما من دائرة المعارك الحربية على مسافة غير طويلة من مدينتي وهران ومستغانم قرر الأمير نقلهما وتوطينهما في سهول ما وراء تلمسان، وذلك قصد حمايتهما ومنعهما من الانضمام إلى الصف الفرنسي، ولجعلها قوة في صفه في أي وقت مناسب.

استمرت الأوضاع تتأرجح من جانب الطرفين بين حذر وترقب حينا، وصدام أحيانا إلى أن تم عقد المعاهدة المعروفة بمعاهدة دي ميشال يوم

1 - أدرك نابليون عدم قدرته على مواجهة إنجلترا بحريا ففرض عليها هذا الحصار بأن أرغم الكثير من الدول منها النمسا وبروسيا وروسيا وإسبانيا وحتى الباب العالي على مقاطعة البضائع والسفن الإنجليزية

2/28 1834 تم بمقتضاها اعتراف كل طرف بسيادة الآخر على جزء غير قليل من أرض الوطن[1]

تشير دلالات إلى أن هذه المعاهدة كانت لأكثر من ضرورة بالنسبة للطرفين المتنازعين، ومن بين الدلالات ما قاله دي ميشال في كتابه من أن معاهدة كانت ضرورية مع الأمير عبد القادر[2]

وولدت هذه المعاهدة ردود فعل قوية في أوساط كثيرة جزائرية وفرنسية، حيث اعترض الرأي الرسمي الفرنسي على هذه المعاهدة، ولعل هذا ما يفسر سبب العزل لدي ميشال وتعيين تريزيل خلفا له، وكان تريزيل على جانب كبير من الكفاءة العسكرية والدراية بأمور البلاد، إذ سبق له أن تولى مهاما كثيرة أهمها قيادة الأركان وقام ببعض الحملات منها على البليدة عهد دو روفيكو (De Rovigo) (1832 1833)[3]

ومن الأعمال التي قام بها تريزيل نقضه للمعاهدة بالسعي إلى عقد صلح منفرد مع القبائل تمخض عن قبائل الدوائر والزمالة يوم 16 جوان 1835 ومن جانب آخر مكنت معاهدة (1834/2/28) الأمير أن يتفرغ لإخضاع وتنظيم

---

1 - للمزيد من التعرف على محتوى هذه المعاهدة يراجع: تشرشل،ص78-79 وكذلك يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري الدار العربية للكتاب تونس 1983 ص 52-53

2 Desmichels. Oran sous le commandement du général Desmichels, Anselin Paris 1835, 1e partie

3. Moniteur algérien. No 44 (du 24 novembre 1832).

الداخل، إذ يتضح من المادة الخبرية الكثيرة نسبيا وخاصة مما كتبه دوفيفيه (Duvivier) حين قال: تفرغ الأمير للقضاء على الشغب والردة بالداخل وتمكن من بسط نفوذه إلى مناطق كثيرة مستخدما الأسلحة التي حصل عليها من طرف الفرنسيين بمقتضى معاهدة دي ميشال[1].

فتوجه الأمير إلى الغرب وأخضع قبيلة رياح فيما وراء تلمسان ثم بني عامر فتصدت له قبيلة الدوائر بعد أن انضمت إلى الشيخ ابن العماري بالمهراز غرب تافنة ودخل في جويلية 1834، فدخل الأمير إلى تلمسان، فلما كان على شيخ الدوائر وهو مصطفى بن إسماعيل إلا أن طلب من أفراد القبيلة اللجوء إلى أرض المغرب الأقصى ولم يتردد في طلب الحماية من سلطان المغرب إلا أن مشايخ القبيلة رفضوا هذا الطلب وأعلنوا اعتصامهم بقوة الأمير الذي يعني اعتصامهم بالحق وبحرمة الدين و"الوطن" وعزة النفس، فما كان من الأمير إلا أن تجاوب مع هذا الموقف وبعث لهم الأمان وعين الشيخ المازري قائدا على قبيلة الدوائر[2]

وعاين الحاكم العام الكونت درلون الأوضاع في وهران في شهر جوان 1835 في الوقت الذي كان فيه حاكم وهران تريزل متصلبا غير راغب في التقرب إلى الأمير بشكل أو بآخر إلا بقوة السلاح، وهو خلاف ما كان يطمح إليه كل من الأمير والحاكم العام إذ كانا يرغبان الصلح. ولعل هذا ما يفسر التعليمات التي وجهها حاكم العام إلى تريزل قصد العمل على التقرب من الأمير.

---

1. Papiers Duvivier, "Note sur les dernières opérations de l'Emir Abdelkader (1834-1835, in A.M.G. H.32

2. محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر، ج1، ص137-138

في الوقت الذي استجدت فيه أحداث كثيرة كان منها ميل الدوائر والزمالة إلى السلطة الفرنسية، أثناء محاولة عودتهم من ضواحي تلمسان إلى مواطنهم الأولى فحاول الأمير منعهم بالقوة الأمر الذي دفعهم إلى طلب الحماية طواعية من رجال السلطة الفرنسية. وقد لبى رجال السلطة وفي مقدمتهم تريزل دعوتهم حيث أرسل فرقة من الجيش الفرنسي لنصرتهم مسرعين وانتهى هذا التدخل بتوقيع معاهدة ذات اثني عشر مادة يوم 16 جوان 1835[1]

جاءت هذه المعاهدة في وقت كان فيه الأمير عبد القادر في حاجة ماسة إلى الهدوء والاستقرار، ولم يكن مستعدا بقوة للدخول في حروب ومعارك ضد قوات فرنسا فما كان منه إلا أن وجه احتجاجا إلى تريزل يذكره بما تم في معاهدة دي ميشال المذكور في أحد موادها على ألا تسمح السلطة الفرنسية للقبائل بالاحتماء بها وأن تعيد الفارين وقد أجابه تريزل بأن ذلك ينطبق على الأفراد لا على القبائل. وكان الأمير يعتمد في توجيه هذا الاحتجاج بجانب ما تم في معاهدة دي ميشال على أنه الوحيد صاحب الحق الشرعي في عقد أية معاهدة من أي نوع كان مع السلطة الفرنسية. حيث قال إلى تريزل: "إنك تعلم الشروط التي التزم بها دي ميشال معي قبل أن تأتي إلى وهران وأنت نفسك وعدت باحترامها وبمقتضى تلك الشروط فإن كل عربي يرتكب جنحة أو جريمة ثم يفر طالبا اللجوء أو الحماية يجب إعادته إلي حتى ولو كانت القضية تتعلق بأكثر من فرد واحد وما أقوى حجتي في هذه النقطة عندما تصبح القضية

---

1 - يقول تشرشل في كتابه السابق الذكر إن مواد المعاهدة إحدى عشر، ص 96

قضية قبائل بأسرها فارة مني وملتجئة إليك أن الدوائر والزمالة هم رعيتي وبناء على قانوننا فإن لي الحق في أن أفعل بهم ما أشاء فإذا سحبت منهم حمايتك تركتهم يطيعونني، كما كانوا، فذلك ما أريد، وإذا كان موقفك عكس ذلك، فأصررت على التنكر لالتزاماتك فاستدع في الحال قنصلك من مدينة معسكر، لأني لن أرفع يدي عن قبائل الدوائر والزمالة، حتى ولو دخلوا وراء حصون وهران إلا بعد أن يندموا ويتوبوا وبالإضافة إلى ذلك فإن ديني يمنعني من السماح لمسلم أن يكون تحت سلطة مسيحي فاختر ما يحلو لك أو أن نار الحرب سيحكم بيننا"[1]

وكانت هذه المعاهدة مع شيوخ الدوائر نتائج كثيرة على الرأي العام داخل الجزائر وحتى داخل فرنسا نفسها ويكفي القول إنها تعد من أكبر العوامل التي دفعت الطرفين الفرنسي والأمير إلى نقض معاهدة دي ميشال والدخول في معارك من جديد فقد جهز تريزل حملة قوتها 5000 من المشاة بجانب وحدات من القناصة مدعمة بقطع من المدفعية وهجم بها يوم 26 جوان 1835 على قبائل عربية وفي مقدمتها بني هاشم والغرابة الأمر الذي فرض على الأمير النزول إلى ميدان المعارك التي انتهت بانتصار الأمير عبد القادر انتصارا كبيرا خاصة في معركة وادي الحبرة الذي غير اسمه إلى وادي المقطع

ونتج عن هذا الانتصار رد فعل كبير في أوساط مختلفة خاصة في فرنسا التي استبدلت كلا من الحاكم العام دروي درلون (Drouet d'Erlon) بكلوزال

---

1 - تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص95-96

(Clauzel) (جويلية 1835) وحاكم وهران تريزيل بـدارلونج (d'Arlange) وذلك قصد تهدئة الرأي العام وامتصاص غضب المعارضة الفرنسية[1]

ففي البرلمان أرجع الكثير من النواب سبب الهزيمة الفرنسية إلى عدم الكفاءة لحاكم الجزائر، فهذا تيار(Thiers) وصف هذه المعارك ضد الأمير بأنها ليست استعمارا وليست احتلالا واسعا أو ضيقا ليست سلما أو حربـا... ولكنهـا حربا سيئة الإدارة[2]

وفور وصول كلوزال إلى وهران في نوفمبر 1835 جهز حملة قوامها 12000 محارب، حيث وجد بعض القبائل مستعدة للتعامل مع فرنسـا فـتمكن مـن الدخول إلى معسكر يوم 6 ديسمبر 1835 ثم تلمسان أوائل جـانفي 1836 بمساعدة بعض المشايخ وفي مقدمتهم مصطفى بن إسماعيل الذي كان على رأس الدوائر والزمالة والواقع أن استئناف الحرب ضد الأمير ونقض معاهـدة دي ميشال إنما كان لضرورة اقتضتها مصلحة فرنسا. لأن من أهداف هذه الأخيرة مد التوسع غربا لتحقيق المزيد من السيطرة على قطاع الغرب من أجل ازدهـار تجارتها وتصريف منتوجاتها الصناعية عبر كل من أرزيو ومستغانم ومع الدول الأخرى وفي مقدمتها إنجلترا من التعامل تجاريا في هذه المنطقة إلا أن معاهـدة دي ميشال سمحت للأمير كي يتعامل تجاريا مع بعض الشـركات الإنجليزيـة

1 للمزيد من معلومات يراجع يحيى بوعزيز، ثورات الجزائر ط 1، البعث قسنطينة 1980، ص 20

2 - مشرشل، ص 98

واليهودية حيث تمكن بواسطتها من تصدير منتوجات كثيرة مثـل الحبـوب والصوف والزيوت والجلود مقابل الحصول على مواد كالسـكر والقهـوة زيادة على ذلك فقد خولت المعاهدة للأمير أن يمد نفوذه إلى إقليم كـل مـن التيطري ومديه ومليانة وبسكرة

وقد نقضت فرنسا معاهدة دي ميشل وأعلنت الحرب علـى الأمـير مدعية أن مسؤولية ذلك تقع على الأمير نفسه بحجة أنه تاجر مع إنجلترا وسمح لـه أن يمد نفوذه ليشمل قطاع المدية حين انتصر على الحاج موسـى بـن حسن (المدعو أبي حمار)[2]

1 للمزيد من معلومات حول هذه القضايا يرجع. Kokenpol,p-p 1151 153 وكذلك إسماعيل العربي، العلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر، ديوان المطبوعات الجامعية، جزائر 1982، ص-ص 52 -53

2 بمجرد أن وقع الأمير معاهدة دي ميشال ثارت قبائل كثير ضده، وقد قاد هذا الرابط الحاج موسى على الطريقة الشاذلية حربا على رأس قبائل أولاد نايل ضد الأمير بحجة أنه تصالح مع "الكفار" فطلب من الأمير مواصلة الجهاد والخضوع إليه. لكن الأمير رفض هذا بحكم أنه ملتزم بمعاهدة مع الفرنسيين من جهة، وأنه مبايع بصفة شرعية من جهة ثانية وانتهى الصراع بينهما بانتصار الأمير وتعيين خليفته محمد البركاني على المدية. للمزيد من معلومات يرجع تحفة الزائر، ج 1، ص-ص 144-146 وكذلك

ESQUER(G.), Corresp. du Général Drouet. d Erlon (1834-1835) Honore Edouard, Paris 1926, p-p 3380-309, 406-409

رابعا: معاهدة الدوائر والزمالة

ما أذكر به القراء هو أن- هذه نسخة من وثيقة المعاهدة المتضمنة للشروط المقررة بين تريزيل حاكم وهران وشيوخ دوائر الزمالة باللغة الفرنسية، وإني بذلت جهدا كبيرا قصد العثور على نصها العربي لكني لم أفلح. مع التنبيه إلى أنه توجد هذه النسخة في خزائن أرشيف وزارة الحربية بفانسان باريس (A M G) صندوق H_235 مع التنبيه كذلك إلى أن أي تعليق في الهامش لم يرد في نص هذه الوثيقة

وأن تدرس هذه "المعاهدة" يمكن أن يصفها بـ "عهد ولاء" لسلطة الفرنسية لعدم توفر الشروط القانونية للمعاهدات، من تلك الشروط يجب أن تكون معاهدة بين الند والند، أي أن أحد أطرافها ليس شخصا دوليا (والممثل في القبائل) خلاف ما حدث في معاهدة الـداي حسين ودي بورمون ومعاهدتي دي ميشال والتافنة وأيضا أن شيوخ الدوائر والزمالة لم تكن لهم سلطة شرعية على المنطقة ثم أن مواد هذه المعاهدة لا تخدم إلا مصلحة الفرنسية فقط، وكأن هدف شيوخ الدوائر والزمالة كان الحصول على الحماية من طرف الفرنسيين ليس أكثر.

وهذا نص الوثيقة المترجم لمعاهدة 16 جوان 1835 المتضمنة للشروط المقررة يوم 16 جوان 1835 بين الجنرال تريزيل المفوض من قبل الحاكم العام وشيوخ الدوائر والزمالة بمخيم ميسق[1]

---

1 أشير إليه في مرجع مشرشل السابق الذكر بمسرغين ص 95

المادة الأولى: تعترف هذه القبائل بنعومة ملك فرنسا وتعلن الخضوعها وخضوعها لسلطته

المادة الثانية: بإرادة منها تخضع (هذه القبائل) لأوامر القادة المسلمين الذين سيعمل على تعيينهم الحاكم العام

المادة الثالثة: تدفع هذه القبائل نفس الضريبة السنوية التي كانت ملتزمة بدفعها لبايات وهران السابقين

المادة الرابعة: يستقبل الفرنسيون دون مضايقة في أوساط القبائل العربية مثلما يستقبل العرب في الأماكن التي هي تحت النفوذ الفرنسي.

المادة الخامسة: تكون تجارة الخيول (الأحصنة) والمنتجات حرة من قبل كل فئة تعلن عن رغبتها في الولاء للسلطة الفرنسية. على ألا تشحن البضائع الموجهة للتصدير إلا من الموانئ التي يخصصها الحاكم العام الفرنسي [1].

المادة السادسة: إن تجارة الأسلحة والذخيرة الحربية لا يمكن أن تتم إلا بواسطة وإشراف السلطات الفرنسية

المادة السابعة: على هذه القبائل أن تشكل وحدات عسكرية عادية من الخيالة الفرسان متى تطلب الظروف إلى ذلك وهذا بناء على أوامر الحاكم لمقاطعة وهران أثناء كل حملة عسكرية توجه بإفريقيا (الجزائر)

---

1 اشترطت السلطة الفرنسية هنا حتى تتمكن من مراقبة البضائع وحتى تتفادى رسوما ويكي عناصر نفوذ الأمير عبد القادر

المادة الثامنة: أثناء مدة هذه الحملات العسكرية يتلقى الفرسان المسلحون بالبندق مرتبا وقدره فرنكان لليوم الواحد ويتلقى المشاة المسلحون بالبنادق فرنكا واحدا ويحق لهؤلاء جميعا التزود بخمس خراطيش من الذخيرة الحربية، على أن يزودوا بإضافة عشرة خراطيش من ثكناتنا (الفرنسية) على أن يتم تعويض القبائل الموالية بسلطة الفرنسية قيمة الخيول التي قتلت في المعارك وفي حالة ما إذا تلقت هذه الوحدات العسكرية التموين من الخزائن الفرنسية فإنه لا يدفع لها إلا مبلغ وقدره خمسون سنتيم في اليوم

المادة التاسعة. ليس من حق هذه القبائل الموالية إعلان الحرب على القبائل المجاورة لها إلا في حالة حصول اعتداء من هذه الأخيرة عليها. وفي هذه الحالة يستلزم إعلام حاكم المقاطعة فورا قصد تحديها وحمايتها

المادة العاشرة عند عبور وحدات من الجيش الفرنسي بالأراضي العربية يمكن لهم شراء كل ما يحتاجونه من أكل وخيول بقيمة الأسعار العادية عن رضاء وطواعية

المادة الحادية عشرة كل القضايا بين العرب داخل قبيلة ما يكون البث فيها من صلاحيات القادة العرب أو القضاة. أما القضايا التي تحدث بين قبيلة وأخرى يكون الفصل فيها من اختصاصات قاضي وهران

المادة الثانية عشرة: أي قائد يختار من كل قبيلة عليه أن يسكن برفقة أفراد أسرته في مدينة وهران[1]

الخلاصة

مما تقدم يمكن أن نستخلص جملة من النتائج منها أن عملية جمع المادة الخبرية ضرورية في الوقت الحاضر وأن رجال السلطة الفرنسية عقدوا العزم على تحقيق أهدافهم بدءا باحتلال الجزائر العاصمة وجناحيها الشرقي والغربي. ففي قطاع الغرب الجزائري كان سكان الريف يشكلون قاعدة الهرم الاجتماعي ومن ثم كانوا يشكلون القوة في الناحية، هذه القوة التي كانت قائمة أساسا على قوة رجال الدين المرابطين ورجال السيف الأجواد، وقد التزمت كلها في البداية الدفاع عن "الوطن" ضد أجنبي هددها من الخارج إلا أن رجال السلطة الفرنسية تفطنوا إلى وسيلة فرقوا بها الصفوف الجزائرية، وكانت من ضمن تلك الوسائل معاهدة الدوائر الزمالة التي كانت تخدم المصالح الفرنسية بالدرجة الأولى، خاصة لما أصبحت تلك القبائل قوة في الصف الفرنسي ضد الأمير عبد القادر، بتجنيدها لفرق من خيالة عسكرية تدعم الحملات العسكرية وتبادله ... مع رجال الاحتلال

1 هذه المادة خطورتها، خاصة لما وضعت هذه القبائل تحت الرقابة كرهائن في مدينة وهران

المصادر والمراجع

1. محمد بن عبد القادر (الأمير)، تحفة الزائر، ج1، المطبعة التجارية، الإسكندرية 1903
2. تشرشل، ش، هنري، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبي القاسم سعد الله، ش، و، ن، ت، الدار التونسية للنشر، الجزائر / تونس، 1974
3. ناصر الدين سعيدوني،

دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984

— ، "دور قبائل المخزن في تدعيم سلطة البايلك في الجزائر"، الأصالة، عدد 32 وزارة الثقافة الجزائر 1976. ص-ص. 46-63

4. يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، الدار العربية للكتاب، تونس 1983
5. " " ثورات الجزائر، ط1، البعث، قسنطينة
6. فشر، تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ترجمة أحمد نجيب هشام ووديع الضبع، ط5 دار المعارف المصرية (س؟)
7. إسماعيل العربي، العلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982
8. التميمي عبد الجليل "مغامرة الحماية التونسية على وهران 1831"، المجلة التاريخية المغربية، عدد 5. تونس جانفي 1976.ص-ص 5-19
9. KOKENPOT (Ch) Traité Desmichels. Ernest Leroux Paris 1924
10. HAMDAN Khodja, Le miroir, Goetschy, Paris 1833
11. Desmichels Oran sous le commandement du Général Desmichels A isc in. Paris 1835
12. Moniteur algérien, N° 44 du 24 novembre 1832

13. Papiers Duvivier Note sur les dernières opérations de l'Emir Abdelkader, (1834 1835) A M G , H.32
14. YACONO. (X). » Peut on évaluer la population de l'Algérie vers 1830 «, in, Revue africaine, 1954.p p 277 307
15. BERNARD Augustin, L'Algérie, T II, Plon, 1930
16. ESQUER, (G.), Correspondance du Général Drouet d Erlon 1834 1835 Honoré D., Paris 1926

Copie du traité du 16 juin 1835

مقطع من معاهدة الدوائر والزمالة

من خصوصيات الفكر في العالم العربي[1]

1 – نشر هذا المقال في مجلة المعالم الصادرة عن جمعية التاريخ والمعالم الأثرية العدد 5، بعنابة، الجزائر 1990، ص ص 21-39

نتناول هذا الموضوع من خلال النقاط الرئيسة الآتية

1- التمهيد

2 – مستوى الوعي في أوروبا

3 – مستويات فكرية في المغرب الأقصى.

4-اختبار المرحلة أو الصدام مع الغرب

5- مواقف فكرية تونسية

5-1-خير الدين باشا

6-مساهمات فكرية جزائرية

1 - التمهيد

من القضايا التي تستهوي المفكرين هي التقاطع والالتقاء في مجال الفكر بين الشعوب وحول هذه الفكرة يمكن القول إن ما جرى من فكر على الساحة في المشرق كان يختلف عما جرى في المغرب والجزائر

وسيكون حديثي باختصار لأن هذا الموضوع واسع وعميق، فأقول كانت مواصفات الفكر / الوعي في بلاد المشرق ترتكز على أساسين هما ما وصف بالفكر السلفي وما سمي بالفكر الليبرالي. ونعني بالفكر هنا الشيء ذاته الذي يدور حوله التفكير، أي الاستعداد العقلي الذي يساعد على التأمل والمحاكمة للتمييز قصد التحليل والتركيب

والمقصود بالفكر السلفي هو الفكر القائم أساسا على النص: القرآن الكريم والحديث الشريف والهادف إلى إعادة المجتمع الإسلامي إلى صفائه الأول

والفكر الصوفي أو المتصوف هو الفكر المتعلق أساسا بقضايا ميتا فيزيقية حول القطبية والإشراق والوجد والوجود (وحدة الوجود) واللاهوت والناسوت، وهو فكر هادف إلى تغييب الذات عن الوجود في الوجود وهو فكر متناقض في جوانب منه مع الفكر السلفي

وتعني الليبرالية النزعة الفكرية (النظرية والتطبيقية) (الداعية إلى ضرورة حماية الفرد/ الإنسان لحريته في مختلف المجالات، جاعلة منه الفرد (الخالق) لا المخلوق، غير العاملة في النهاية من أجل تطبيق العدالة الاجتماعية كمساواة بين الشعوب، ومن أكبر أهدافها التنازع من أجل البقاء، أي أن الفرد في النهاية وحده قياس لكل شيء

يمكن القول إن نواة الفكر في بلادنا العربية التي تتوزع جغرافيا في المشرق كانت محل الالتقاء بين الفكر السلفي والمتصوف بل المستوصف (المتطفل على التصوف والفكر "الليبرالي") ولعل هذا ما أدى إلى نتيجة منطقية وهي أن مساهمات الفكر بالمشرق كانت أكثر عمقا فيما يسمى بالحداثة/ المعاصرة خلاف ما كان عليه الأمر في بلاد المغرب الذي كانت مساهماته الفكرية مشدودة أساسا بمجال الأصالة / التراث والموروث. وهذا مرجع حسب **تقديرنا** يتمثل في

1. أن الرواسب التي عرفها المشرق منذ فترة ما قبل الفتح الإسلامي **تختلف عن** التي عرفها المغرب لأن المشرق عرف تكوينا اجتماعيا **واقتصاديا متميزا**

خاصة في ذلك الذي يسمى بأسلوب الإنتاج الأسيوي المالي الذي لم يسبق وأن عرفت بلاد المغرب مثل هذا اللون. مع العلم أن أسلوب الإنتاج الأسيوي يكون فيه التطور قائما على ملكية الدولة خارج الملكية الخاصة، وهو يختلف عما عاشه المغرب من حياة مؤطرة رأسا في أنظمة مدنية.

2 صدام المشرق بالغرب كان أسبق وأقوى من صدام المغرب وذلك خلال الحروب الصليبية وهجمة نابليون بونابرت بجانب وجود طوائف دينية (درزية ومارونية وقبطية) كل ذلك ولد محاورات سياسية واحتكاكات ثقافية وفكرية في المجتمع المشرقي. علاوة على ما كان كامنا من رغبة ذاتية لدى مفكرين لعرب في تأسيس أنظمة حكم متطورة للتخلص من الهيمنة التركية العثمانية والأجنبية

3 وجود طوائف دينيه وسياسية في المشرق متناحرة وعدم وجودها في بلاد المغرب

4 طبيعة النظام، إذ أن الوجود العثماني في المشرق كان يختلف عما كان عليه في المغرب كل هذه العوامل بل الفروقات / التقاطع ولدت نتيجة هامة حسب تقديري من نتيجتين. الأولى بروز الصراع بين العروبة كقومية ومن ثم كأيديولوجية والإسلام كعقيدة وتطور هذا الصراع في بلاد المشرق على الساحة السياسية والفكرية خاصة لما شخص وحصر المشارقة الإسلام في الخلافة العثمانية ومن ثم كانت النتيجة الثانية ولمتممة في أن الساحة الفكرية كانت تنادي في المشرق بضرورة الالتزام أكثر بالعروبة، وبالتالي بتحديد الفكر القائم على المعاصرة أولا أي، الدعوة إلى العلمانية،

في حين كان الحال في بلاد المغرب مفتوحا للإسلام، وبالتالي للأصالة القائمة على الإصلاح بالدين الإسلامي الأمر الذي أدى إلى ظهور اللائكية أي ضرورة فصل الدين عن الدولة السياسية في بلاد المشرق لا في بلاد المغرب

لا يعني هذا وأن مستوى الفكر" الليبرالي" بالمشرق كان قد ضرب إطنابه إلى درجة يمكن القول إن الحداثة بلغت مستوى العمق، لأن أحداثه حسب تقديري لم تصل الدرجة المؤثرة إلا بعد دخول الرأسمالية عن طريق جنيها الاستعمار. وسبب ذلك في رأيي يعود إلى التعارض المزمن بين السلطة وعامة والمجتمع، إذ نتجت عن هذا التعارض الذي استمر خلال القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر فعالية ضعف في مختلف المستويات الإدارية الحكومية، والاقتصادية وحتى في بنيات المجتمع نفسه. فانعكس هذا الضعف البنيوي على مستويات الفكر / الوعي فانحى هذا المستوى إلى درجة متدنية ونتج عنه تحول الاهتمام الفكري من القضايا الأساسية إلى الأمور الثانوية الهامشية ومن مؤثرات الدالة على هذا غلق باب الاجتهاد أو على الأقل عدم الإقبال عليه والتشجيع إليه. الأمر الذي أدى إلى حتمية وهي ميل الفكر إلى السلفية اللاعقلية على حساب الفكر التجديدي والتزام هذا الأخير الاجترار والتمي بعقبة المناقب على حساب الإبداع. ومن ثم نزل المشرق إلى خطورة الانحطاط خلال القرن التاسع عشر عن جدارة واستحقاق، ولم تفلح فيه المحاولات النهضوية التي قام بها رجال كانوا أصحاب قضايا؛ لأن محاولاتهم جاءت

تطبيرية وإقليمية أكثر مما جعلت شيئا آخر من تلك المحاولات النهضوية كانت في

مصر عهد محمد علي عن طريق الإرساليات فهي نهضة علمية وإدارية وعسكرية

الشام وهي فقهية قامت على أكتاف أسر مشهورة أمثال: آل حمزة المرادي وعابدين والعطري والحلبي

العراق وهي أدبية قامت على أكتاف كل من محمود شهاب الدين الألوسي والعروقي

نجد وهي سلفية إصلاحية تمثلت في الحركة الوهابية

تركيا وهي إصلاحية إدارية دعا إليها مفكرون أمثال مدحت باشا الذي عاصر حكم السلاطين محمود عبد المجيد وعبد العزيز وعبد الحميد وكان من أنصار الدستور الذي يعني الإصلاح المدني والسياسي الهادف إلى إقامة مشاريع إنشائية مثل خطوط السكك الحديدية

السودان وكانت نهضة إصلاحية قائمة على سلفية المهدية ولم تعرف التعثر إلا بعد الهجوم الإنجليزي أواخر القرن 19

فيكون المجتمع العربي الإسلامي قد دخل مرحلة جديدة بحكم عاملين. الأول يعود إلى اهتمام عامة المجتمع الإسلامي بالقضايا الثانوية الهامشية دون الالتزام بالقضايا الأساسية الرئيسية والثاني إلى ضعف السلطة الحاكمة خلال هذا التاريخ إذ كانت الإمبراطورية العثمانية تعيش مرحلة الاحتضار في معظم أجهزتها الحكومية الإدارية والعسكرية سواء على الصعيد المركزي أم الإقليمي

ومن ثم صدر اسم "الرجل المريض" يليق بها فاستفحل مرضها واتسع المكر الغربي الذي عمل على سلخ دويلات في البلقان والبلدان (رومانيا حاليا واليونان) عن الأمبراطورية العثمانية

تاريخيا من الصعب أن نحمل الدولة العثمانية المسؤولية الكاملة في هذا الانحطاط لأن من المهام الأساسية المنوطة بالسلطة الحاكمة حسب مفهوم ذلك العهد هي المحافظة على الأمن سواء داخل عاصمتها أم ولاياتها. وجباية الضرائب وحماية الحدود ولعل هذا ما دفع بعض الدارسين السياسيين إلى إطلاق اسم "الدولة الحارسة" على الدولة العثمانية. وكانت ثقة الرعية فيهما تتوقف على القيام بهذه المهام خلاف ما هو عليه الأمر في عصرنا هذا الذي تطورت فيه مهام الدولة لتشمل خدمات اجتماعية أوسع بجانب فرض الأمن.

من جهة أخرى فقد فرض على العالم العربي الإسلامي الرسمي والشعبي أن يكون في موقع الدفاع بعد أن سبق له وأن حقق انتصارات عسكرية وفكرية مؤقتة، لكنه لم يجن انتصارات أخرى موازية وهو ما يفسر في رأينا انهزامه السياسي بسرعة أمام موجة الاستعمار الأولى

بينما حدث العكس لدى بعض الدول الأوروبية التي سبق لها وأن انتصرت عسكريا كما انتصرت في مجالات أخرى من ذلك فقد أدت الحروب الصليبية إلى خروج الإقطاع الأوروبي من علاقات إنتاج محدودة إلى علاقات إنتاج أخرى أكثر تطورا خاصة بعد ظهور المدن التجارية وهذا ما يمكن أن يؤكد حقيقة وهي قد يتحول الانتصار العسكري إلى عامل الضعف. وأن مثل هذه الانتصارات إذا أريد لها الدوام لا بد أن يواكبها تطور في مستويات الوعي.

2- مستوى الوعي في أوروبا .

نتحدث عن هذا الجانب باختصار لتقريب الفهم حول الاختلاف الذي ساد من حيث مستوى الفكر/ الوعي في كل من أوروبا والعالم العربي الإسلامي إذ انطلق الفكر في أوروبا خلال القرنين 18 و19 من الفن والعلم إلى السياسة والصناعة ثم إلى المجتمع فالاستعمار.

بينما انطلق الفكر في البلاد العربية من الدين إلى المجتمع والسياسة ثم إلى الصناعة فالصمود أمام هذا الاستعمار

بناء على هذا يكون الفكر في أوروبا قد انطلق من قاعدة فنية علمية تعرف تطورات مختلفة مخالفة شملت مجالات متعددة من الحياة، من ذلك ما حصل في المجال الأدبي (الحديث هنا على سبيل المثال لا الحصر) حيث اتخذ فيه الفكر من الحرية والإبداع والتذوق الجمالي ميدانا خصبا ولما كانت اهتمامات التيار الأدبي بأوروبا في مطلع القرن الثامن عشر واضحة أكثر في الجانب العاطفي لكنه لم يرق إلى مستوى الإيديولوجيات على الرغم مما عرفته أوروبا من أحداث كالثورات في الحياة السياسية والاجتماعية، ومرد ذلك إلى أن الحياة اليومية للخاصة والعامة من الناس كانت مرتبطة بما كان آنيا، أي / أنها كانت تهمهم كل ما كان معيشيا وأن مستوى الإدراك لتلك الخاصة والعامة لم يستوعب تلك التحولات وبالتالي لم يتأت له التحكم فيها وتوجيهها

بحكم طبيعة الأحداث المتناقضة بين رواسبها الممتدة في أعماق الماضي وبين ما كان يوحي بحتمية التغيير بحكم ذلك عرفت الساحة الأدبية الفكرية في أوروبا بداية القرن 19 إفرازات يمكن حصرها حسب التقدير في تيارات ثلاثة.

الأول. تزعمه فئة توصف (بالبرجوازية الواعية) التي تشبثت بقيم القرنين السابع عشر والثامن عشر، من جهة و"بقوة" النظام المنهار من جهة أخرى فهي بحق تعد الفئة المحافظة على تيار الكلاسيكية

الثاني التزم أصحاب هذا التيار الموقف متأرجح بين الدعوة إلى الكلاسيكية وما كانت تدعو إليه وتعتنقه فئة التيار الثالث المسمى في الأدب الفرنسي بالتيار الثوري الشاب. ومن الشعارات التي دأب هذا التيار الثوري يطبعها خلال القرن 19 عشر هي التغيير الجذري للواقع القائم سواء في الذهنيات أم المثل في الهيئات الإدارية والحكومية فحدث تحول على حساب قيم ومميزات القرن الثامن عشر التي كانت قائمة على الفلسفة ذات الهدف النظري الرئيسي وهو الحرية (حرية الفرد) الذي جاء بعد القرن 18 عشر وهو قرن الفلسفة لاهتمامه أساسا بالقضايا الميتافيزيقية مثل أصل الكائنات بنوعيها الجامد والمتحرك يعني هذا أن مفكر القرن الثامن عشر حاول إخضاع كل شيء حتى الدين للفلسفة بعد أن كانت هذه الأخيرة قد أخضعت للدين خلال قرون سابقة

وبناء عليه يمكن القول إن مفكري القرن 18 أمثال روسو وفولتار وديدرو ومونتيسكيو وبومارشيه قد دعوا إلى حرية الفرد مكتفين بدعوة السلطة إلى القيام بإصلاحات في مجالات محدودة وفي مقدمتها المجال المالي ونلمس هذه الدعوة بشكل أكثر وضوحا في الفكر الفرنسي والسبب يعود إلى ضعف السلطة

الحاكمة في الداخل والخارج بفرنسا إذ انهزمت الجيوش الفرنسية خلال القرن 15 أمام قوات فردريك الثاني. وأمام إنجلترا في حروب السبع سنوات ومع ذلك يبقى نقد فكر القرن 18 في مجال نظري خلاف فكر القرن 19 الذي عمل على تحرير الفرد الأوروبي من قيود النظام العام. وحتى من بعض القيود التي فرضها العرف. فكانت دعوة التجديد المستمر دون الالتزام بالقيم الموروثة التي هي أخلاقية وفلسفية ودينية. إن ثورية مفكر القرن 19 متولدة عن إفرازات لمراحل تاريخية كان للحياة اليومية مفعول كبير في أحداثها، مثلا في فرنسا لعبت الأندية الفكرية الدور الأساسي في تشكيل حركة فكرية أدبية ثورية تجاوبت بعمق مع تلك الأحداث المختلفة سواء التي كانت في فرنسا أم خارج حدودها. وحتى تكون الصورة أكثر وضوحا للقارئ نعرض بعض الأندية الفكرية التي كانت محل استقطاب وشحذ للمفكرين منها في باريس وحدها كان:

نادي أنترسول المؤسس عام 1720 بساحة فاندوم. إذ كانت القضايا الأساسية للحياة الفكرية والسياسية والاقتصادية محاور لمناظرات بين أعضاء هذا النادي أمثال منتسكيو إلى درجة أن تدخلت السلطة وأغلقت أبوابه خوفا من زيادة درجة الوعي السياسي واستفحال قوة المعارضة.

نادي مان (1699 1753) المسمى على اسم أحد النبلاء الكبار الذي فتح هذا النادي لاستقبال كبار الأدباء والمفكرين أمثال فانتال ولاموت ولافار.

- نادي لامركيز دي لامبار (1710-1733) المؤسس بشارع رشيليو. كان من رواده منتسكيو ولاموت وماريفو.
- بجانب الأندية الأخرى والمقاهي التي كانت ملتقى للحوار الفكري الحر مثل نادي تاسال
- نادي دي دافان (1740-1780) حيث كان يتردد على هذا كبار الوجوه اللامعة في الفكر أمثال منتسكيو ومنتمال وماريفو
- نادي الآنسة لاسبيناس (1762-1776) كان من الرواد الدائمين على هذا النادي كبار الأدباء الاقتصاديين أمثال تيرقو الذي تولى وزارة المالية قبيل قيام الثورة الفرنسية
- ومن الأندية الثورية المميزة نادي دي اباي ويكروة دوليخ ..الخ.

يمكن استخلاص حقيقة وهي إذا كان قرن الفلسفة قد اهتم بشكل عام بالقضايا الميتافيزيقية وبتوجيه النقد للديانة المسيحية فإن أدباء ومفكري هذه الأندية اهتموا كثيرا بخصوصيات الحياة اليومية في جوانبها المتعددة، من ذلك أن فولتار انتقد بقوة مهازل الحياة الاجتماعية وعلى رأسها العدالة التي يسيرها رجال غير أكفاء ونلمس هذا النقد في الإبداعات الكثيرة مثل (رسائل فلسفية) (1734)، زائير (1732) قرن لويس 14 (1751) وكنديد (1759) وأعمال ديدرو كتأليفه: الموسوعة. وجاك الفاتالست (1773). وكانت أعماله الفكرية هي نقد للمعتقدات السائدة. ويعد ديدرو في رأينا المفكر الذي سبق ماركس في معالجة المادية الجدلية بعمق، لكن أفكاره لم تجد من يجسدها على أرض الواقع

بالشكل الذي وجده ماركس وكذلك روسو في أعماله العقد الاجتماعي (1762)

ومن الغرابة بمكان أن فرنسا لم تعرف شيئا ذا أهمية في أحد الألوان الأدبية وهو نظم الشعر خلال النصف الأول من القرن 18. ما سبب ذلك؟ أترك هذا الطرح للإجابة عليه من طرف المهتمين

3 – مستويات فكرية في المغرب الأقصى

بعد هذا الحديث المختصر عما كان في كل من المشرق وأوروبا من حيث مستويات الفكرية انتقل للحديث عما جرى في بلاد المغرب العربي الكبير مبدأ بالمغرب الأقصى إذ كان فيه المجتمع خلال القرن الثامن عشر يعيش وضاعا غير متجانسه من حيث تشكيلاته الاجتماعية المكونة من مجتمع الأرياف ومجتمع المدن، كان مجتمع الأرياف يؤسس قاعدة الهرم الاجتماعي الكبير يتشبث بالقانون العرفي القائم على حيازة الأرض وعصبية الدم والولاء بدرجة أقوى خلاف الحواضر الذين كانوا أكثر ارتباطا وممارسة للقانون الشرعي وللحرف. يصف كثير من الدارسين المجتمع المغربي بالثنائيات الآتية

السهل – جبل العرب – البربر / العرف – الشرع مخزن (السيبة) – السيبة من المعروف أن العثمانيين لم يتمكنوا من إحداث مواطن نفوذ في بلاد المغرب الأقصى، ومن ثم عاش هذا الأخير فترة تاريخية تختلف عن التي عاشتها كل من الجزائر وتونس أو عن التي عاشتها بلاد المشرق ولعل هذا من العوامل التي لم تجعل المغرب مثل الجزائر فتكون النتيجة الآتية أن مستوى الفكر في عائله كان قائما على الدين، مرتكزا على محورين أساسيين هما السلفية والطرقية

المتصوفة والملاحظ أن الوهابية وهي مرحلة تطبيقة لأفكار ابن تيمية قد تسربت إلى بلاد المغرب الأقصى بحيث كان لها من الصدى والإقبال ما عمل على توجيه الفكر خلال فترة غير قليلة من تاريخ المغرب الحديث. فالمعروف عن دور الوهابية مثلما هو الحال عند السنوسية أنه كان ذا شقين متميزين

الأول: ديني وإصلاحي واجتماعي لازم محاربة البدع والإغراق أحيانا في الخرافة والشعوذة التي كان بعض الطرقيين يشجعون على استفحالها ومن ثم يمكن القول بأنها طرق مستصوفة عصولية لأنها طرق متصوفة

الثاني: سياسي وإصلاحي أساسه «المقاومة» ضد كل ما هو/ خارجي تحديثي سواء الآتي من لدن الخلافة العثمانية أم من المحاولات الأوروبية الهادفة إلى فتح الأسواق الخارجية والسيطرة عليها، لمضاعفة نفوذها، ومنها سوق المغرب الأقصى

وفي تقديري هذا ما جعل رجال الحكم بالمغرب يعاضدون الوهابية لا لذاتها وإنما جعلها كوسيلة القصد منها تحقيق مآرب وفي مقدمتها:

- محاربة "الخلافة" العثمانية في أحد قلاعها القوية الرابطة في الجزائر.
- جعل الوهابية القشرة الصلبة لجسم المغرب حتى لا تتمكن القوى الأوروبية من الدخول بسهولة
- التقليل من نفوذ الطرق الصوفية التي جعلت من الخرافة والشعوذة ملاذا لعامة السكان. كل هذه العوامل جعلت سلاطين المغرب يأخذون بسلفية الوهابية، ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر محمد بن عبد الله (1790) والسلطان سليمان (1792) ومن ثم صارت تعاليم الوهابية

الوافدة من انحياز المظهر الرسمي والشعبي في الخطاب المغربي. ولا يعني هذا أن الحكم بالمغرب قاطع بشكل نهائي الطرق الصوفية الأخرى بتوظيفه الوهابية كسلاح واق، بل أن بعض السلاطين استمالوا إليهم شيوخا من الطريقة التيجانية المتوطنة في الجزائر. وكذا الدرقاوية المنتشرة في الغرب الجزائري. وأن مردّ ذلك إلى ضرورة سياسية لأنه لم يكن خاف على رجال الحكم بالمغرب ما كان للطريقتين من نفوذ واسع على عدد ليس بقليل من عامة السكان سواء في الجزائر أم في المغرب لهذا فالضرورة السياسية اقتضت استمالة شيوخ الطريقتين التي تعني بالضرورة استمالة الأتباع والمريدين من مختلف المستويات والجهات الاجتماعية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن كسب التيجانية إلى الصف المغربي يعني إحداث حصون أمامية للاحتماء من خطر الحاكم العثماني المرابط في الجزائر لأن التيجانية وعصبتها عين ماضي كانت من الجهات القوية ضد النظام العثماني وكذا الشأن بالنسبة للدرقاوية التي لم يعمل حاكم المغرب على مسح حظوته لشيوخها إلا بعد ثورتها على الحاكم العثماني.

عتماد على هذا يكون رجال الحكم بالمغرب الأقصى قد وازنوا بين سلفية الوهابية وصوفية كل من الدرقاوية التيجانية لا لذات هذه الحركات من جهة ولا لالتقاء مطروحات الوهابية مع التيجانية مثلا في نبذ الخرافات كزيارة الأضرحة من جهة ثانية وإنما عملوا على توظيفها وتشجيع فكرها على الرغم مما يتضمن من مفارقات لتكون درعا واقيا لمواجهة أي خطر خارجي. وأيضا لكسب العامة الذين يقدمون فروض الولاء لهذه الطرق معتصمين لها متعصبين

هـ. وعليه يكون الحكم على هذا التوظيف أنه كان لغرض سياسي محدود دون أن يكون متجذرا فقط فهو كان لخدمة المرحلة. الأمر الذي أدى إلى حدوث اهتزازات عندما حلت مرحلة جديدة وأعني بها مرحلة الصدام مع الغرب المباشر

4- اختبار المرحلة أو الصدام مع الغرب:

بمجرد أن تم احتلال الجزائر (1830) فطن رجال الحكم في المغرب إلى ضرورة تقوية الصف لمواجهة خطر أوروبي قريب. وسرعان ما تبين الضعف أكثر لرجال الحكم خاصة بعد هزيمة قواتهم بسرعة أمام الجيش الفرنسي في معركة إيسلي (1844) عهد السلطان ابن عبد الرحمان (1850) وأثبتت هذه الهزيمة أن بعث الأسس التي بنيت على سياسة الموازنة بين السلفية الوهابية والطرقية كانت هشة بالفعل، كانت هشة بحكم أن تلك المحاولات كانت ذات مؤثرات أفقية ومرحلية دون أن يكون لها ضمان معش، بحيث كانت بعيدة عن بث وتعميم الوعي في أوساط العامة الواسعة لأنها كانت تعمل في خطاب عاصمي ضيق ومصلحي غير منفتح على قاعدة واسعة. ولعل هذه التجربة هي التي ولدت فيما بعد حركة إصلاحية سلفية عقلية يمكن وصفها عن جدارة واستحقاق بالسلفية النهضوية "الوطنية" المغربية التي سخرت فكرها لمحاربة الاستعمار وتطوير الذهنية، وهذا موضوع آخر يمكن الحديث عنه في مستويات الفكر أواخر القرن 19 وبداية القرن 20.

كانت هزيمة إيسلي منبها لكل فئات المجتمع المغربي إلى الخطر الداهم. فظهرت محاولات التغيير حيث ارتأت لرجال الحكم ضرورة القيام

بإصلاحات، أي، التحديث في الأجهزة المركزية كالإدارة والجيش وبعض المواقف الاقتصادية. في حين تبين للعامة من سكان المغرب بزعامة النخبة منهم أنه حان وقت القيام بإصلاحات تشمل الحياة الاجتماعية أساسا مرورا بتطبيق العدالة الاجتماعية وعلى رأسها الشورى

هكذا، إذن كانت النظرة الإصلاحية من طرف البناء السياسي الأفقي الذي عمل على التحديث في الإدارة والجيش كتأسيس مدرسة عسكرية ومعمل للسكر ومطبعة وإرسال بعثات إلى أوروبا. وكأن العملية هنا تقليد للبعثات التي تمت عهد بطرس الكبير (1725) حين أراد النهوض بروسيا أو محمد علي والي مصر

لم يحقق هذا النوع من الإصلاح بالمغرب الشيء الكثير لأنه لم يكن في مستوى متطلبات المرحلة، زيادة على أنه لم يكن مقنعا بقناعة أغلب الفئات المشكلة من عامة السكان الذين لم يروا في هذا النوع من الإصلاح سوى الانتقال من المدرسة الإسلامية إلى الأحضان الغربية، بل وذهب ببعضهم الأمر إلى اعتبار أن تلك الحركة (يعني) إنما هي قدر الله كعقاب للمغاربة الذين خرجوا مبادئ الدين الإسلامي.

يكون مستوى الوعي في المغرب الأقصى بهذه الخصوصية في أواخر القرن 18 وخلال النصف الأول من القرن 19 مركزا حول الخطاب الرسمي، هذه السلفية التي ستستمر إلى تاريخ لاحق، ولكن في شكل آخر يمكن تمثل في السلفية العقلية ذات المنحى السياسي الوطني، بل استطاع ... عمل على تطوير الفكر وفهم القضايا الأساسية التي شغلت يومها ال... مستمسكة ...

الأخلاقي للمغرب بمختلف صوره. ومن ثم صار هذا الفكر القوة الدافعة والمعبرة على مطامح الشرائح الاجتماعية المغربية في نطاق واسع خلاف ما تم مع السلفية القديمة

والسؤال الذي يجدر طرحه هو: إلى أي مدى كانت هذه المستويات الفكرية واعية بعوامل المحركة للحياة آنذاك؟ وطرح هذا السؤال مهم لأن علاقة الفكر بالواقع أساسية بل أن الواقع في معظم صوره فكر في حد ذاته ومن ثم يكون الفكر جزءً من الحياة الاجتماعية. وأفضّل أن تكون الإجابة على هذا السؤال بعد الحديث عن مستويات الفكر في كل من تونس والجزائر تجنبا للتكرار لأن مثل هذا السؤال سيطرح عند التطرق للحديث عن هذين البلدين.(مع الأسف لم ينشر جواب السؤال في نهاية هذا المقال في المجلة المذكورة).

5- مواقف فكرية تونسية

تشير كثير من الوثائق والدراسات إلى أنه بعد أن تولى حمودة باشا الحكم على رأس الأسرة الحسينية (1782) تغيرت أمور كثيرة سواء على الصعيد الداخلي بتونس أم خارجها خاصة فيما يتصل بعلاقتها مع أوروبا أو بجارتيها الجزائر وطرابلس

على الصعيد الداخلي شهدت تونس محاولات تغيير مست قطاعات هامة من الولاية في ميدان السياسية الإدارية والاقتصادية والاجتماعية من تلك التحولات تطبيق جملة من القرارات الحكومية في البلاد تمثلت إحداهما في وضع الرجل المناسب في المكان المناسب. لأن حمودة باشا سمح لكثير من خيرة أبناء البلاد أن يكونوا من أولئك الوزراء كان مصطفى خوجة صاحب الطابع الذي كان له

من الحرم ما أهله أن يكون على رأس الوزارة الأولى بل أن يكون الرجل الماسك لزمام الأمور في البلاد دون منازع، ومما يشهد لهذا الوزير من المواقف التي تدل على بعد نظره فيما تمليه عليه الطرق الدبلوماسية ومصلحة البلاد أنه تعامل مع قناصل الدول الأوروبية بموازنة طرفية إذا لم يسمح لطرف أن يحظى بامتيازات أكثر من الطرف الآخر

لم يدم طويلا هذا اللون من السياسة التي طبقها صاحب الطابع حيث مال في النهاية إلى الصف الفرنسي خاصة بعد قيامه بالزيارة إلى عاصمة الدولة العثمانية (1795) إذ تمكن قنصل فرنسا من إقناع صاحب الطابع بالتعاضد مع القوة الفرنسية لتحقق فرنسا من جهتها مكاسب وفي مقدمتها توسيع سوقها التجاري. منذ هذا التاريخ صار النفوذ الفرنسي في البلاد كبيرا لدرجة أن سياسة حمودة باشا ومن تولى الحكم بعده كانت كثيرة الاعتماد على التدخلات الأجنبية وفي مقدمتها فرنسا، ومن ثم لم تستثمر المحاولات الإصلاحية التي قام بها كل من محمود باشا (1814) حسين باي (1824-1835) مصطفى باي (1835-1837) أحمد باي (1837 1855) ومحمد باي (1855-1859)

تكون السلطة الفرنسية بهذه المواقف قد ضغطت على رجال الحكومة التونسية لقيام بتحديث البلاد وفقا لأهدافها البعيدة مستغلة ظروف تونس المرهقة، لهذا عقدت معاهدات كثيرة خلال فترات زمنية متعاقبة بين تونس وفرنسا وكانت محتويات تلك المعاهدات تدل على هدف فرنسا الرامي إلى ربط تونس بفرنسا. حيث جعلت فرنسا من قضية الرعايا الأجانب في تونس

موضوعا مبررا للقيام بمثل هذه الضغوط. وكذا موقف رجال الحكومة التونسية لصالح فرنسا؛ والمؤشرات الدالة على هذا كثيرة، منها وقوفهم بالصف الفرنسي أثناء احتلالها للجزائر

يعني هذا أن مستوى الوعي الرسمي التونسي قد اقتنع بضرورة إدخال المعالم الحضارية الأوروبية /التحديث/ على أساس أنها هي الممر للتطور، ويمكن الاستدلال على هذا بعرض مستوى فكري لأحد رجالها وهو خير الدين باشا

5-1- خير الدين باشا 1819-1889

أصله شركسي تربى وتعلم في بلاط الحكم التونسي؛ تولى مناصب هامة في الدولة كقيادة الجيش، والإدارة أسس مجلسا نيابيا. وتولى في اسطمبول أواخر حياته منصب رئيس الوزراء عهد السلطان عبد الحميد.

هل يمكن اعتبار المطروحات الفكرية التي جاءت في كتابه أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك مماثلة بشكل مطابق للخطاب السياسي العصري خلال القرنين 18و 19؟ وهل كان ذلك الخطاب العربي الإسلامي ذاتيا نابعا من إفرازات التطورات الداخلية للمجتمع العربي، أم هو شكل من مؤثرات موضوعية نابعة عن تدخلات غربية قصد القيام بالإصلاحات لتحديث الرقعة العربية بشكلها الرسمي والشعبي وجعلها السوق الكبير لفائض إنتاج الرأسمالية؟.

نميل إلى الاعتقاد أن مطروحات خير الدين باشا الفكرية تعدّ من الوجوه الواضحة في الخطاب الفكري العربي الإسلامي الحديث لأنها ذات محتويات ومثمار عقائدية دينية راسخة في أصول الشريعة الإسلامية وفي نفس الوقت

تحمل طموحات التكيف مع الإصلاحات السياسية والاجتماعية التي كانت سادت بها أوروبا. ومع ذلك يبقى الموصل النظري الأساسي في فكره عينيا

كان خير الدين أحد رجال السلطة الذين مارسوا مهامها على غاية من الدقة مقارنة بمن تولى الحكم في عصره. في الوقت الذي كانت فيه تونس تعيش ثلاثية، هي التبعية للباب العالي، الضغوط الأجنبية، وفي مقدمتها الفرنسية ورغبة والطموح في النهوض بالداخل الذي ضرب الضعف فيه بطنابه في ظل هذه الثلاثية جاء فكر خير الدين معبرا بل شاهدا على واقع تاريخي، جاء كنتيجة حتمية لمحاولات وأبحاث غربية لتطويع تونس وكسبها لصف الرأسمالية الناهضة ونلمس هذا بشكل واضح في كتابه **أقوم المسالك** باعتماده على الدول الأخرى في أعماله التطبيقية ومن ثم يمكن اعتبار الخطاب العربي من هذا الجانب متأثرا بالغرب. وجاء أيضا كنمط ذاتي حين عمل على الاحتفاظ بمبادئ الشريعة الإسلامية بحكم أن الموصل النظري لفكره عيني مثلما سبق ذكره

يكون خير الدين بهذا الموقف قد زاوج بين شيئين متناقضين نظريا هما العقلي "الليبرالي" والشرعي الديني. لأن الأمر عنده: لا نهضة دون قيام تنظيمات سياسية وإدارية ولا حرية دون تقييد للسلطة القائمة.

بناء على هذا يكون خير الدين من المساهمين في تطوير الفكر العربي في جزء من البلاد العربية الإسلامية فهو من الذين انبهروا بالتفوق الأوروبي في مجال الصناعة والحروب والعلوم والإدارة فكان من الذين سقطوا بفعل موقف

المحافظين الصادقين والربتويين. وبفعل التناقض الكبير بين واقعه الرافض للتحديث ورغبته هو فيه

ويمكن اعتبار فكر خير الدين باشا محاولة الإجابة على سؤال شغل بال المصلحين وهو كيف نحافظ على مقوماتنا العربية الإسلامية وفي نفس الوقت نعمل على تطوير المجتمع العربي الإسلامي أسوة بالغرب؟

6- مساهمات فكرية جزائرية في قضايا حديثة

من القضايا الحديثة التي شغلت بال المفكرين في البلاد العربية الإسلامية خلال القرنين 18 و19 قضايا أخلاقية إنسانية كتحرير العبيد والشعوب أي حرية الفرد بجانب القضايا الاجتماعية المتمثلة في التخلف والإغراق في الخرافة والشعوذة والقضايا السياسية مثل الاستعمار والكفاح والتحديث والقضايا الفلسفية المتعلقة بباب الاجتهاد وبأفكار عصر التنوير.

والسؤال المطروح هو: ما هي المساهمات الجزائرية في مثل هذه القضايا؟ قبل التعرض لهذه لا بد من الضرورة بمكان الإشارة إلى شيئين الأول اصطلاحي والثاني منهجي

فالأول يعني بمصطلح التغريب والمعاصرة / الحداثة. في كثير من الأحيان لا نفرق الفروق بين هذين المصطلحين باعتبار أن المعاصرة مطابقة للتغريب. من هنا فالتغريب ليس معاصرة لكن بعض الشعوب وجدت بها معاصرة وهي لا تعني إلى العالم العربي، بهذا الخلط يكون أي تطور لأي شعب مرهونا بمؤثرات معاصرة الغربية لكن الواقع يؤكد أن العوامل الداخلية للشعوب تساعد على التطور بتفاعلاتها مع العوامل الخارجية. فالتطور هنا هو ذات وموضوع

الشيء الثاني أن المعاينة بتأمل ما في واقع ثقافي للمجتمع تتم من داخل المجتمع، والفكر جزء من هذا الواقع، له شيء من القدرة على التعبير في الحياة الاجتماعية، ومن ثم كان من مهام كل جهد فكري التأثير والتغيير بالدرجة الأولى لأن من المهم المنوط بالجهد الفكري اليومي أن يعمل على إبراز وتوضيح هذه المهام وهنا تكون الصعوبة لأنه من الناحية المنهجية ستكون أمام مداخلات ثلاث في بنيات النص الفكري حين نحاول دراسة لمعرفة المساهمات الفكرية. وهذه التداخلات هي:

أولا: بنية النص / الأثر أي المؤلف نفسه والتشكلاتية من حيث الدلالة الفكرية التي هي تعبير عن الحالة دائما

ثانيا بنية صاحب النص بمكوناته وانتماءاته الفكرية والاجتماعية

ثالثا. بنية الإطار الاجتماعي العام للنص - لأنه في ضوء هذا تتحدد وظيفة النص، أي الأطر الاجتماعية والسياسية ومدى تأثير هذا الواقع الاجتماعي والسياسي على النص وعلى صاحب النص معا

ومن خلال هذه التداخلات بل القواسم المشتركة المتفاعلة في هذه البنيات تتأكد حقيقة وهي أن أي عمل فكري هو انتماء في أساسه يكون معبرا عن رؤية اجتماعية مشخصا لخصوصيات تاريخية سادت. ولا يمكن أن يكون عملا فنيا من أجل الفن فقط. ومن القضايا الفكرية الحديثة قضية الاجتهاد حيث وجدت محاولات فكرية جزائرية في هذا الباب وممن كانت لهم محاولات فكرية الشيخ عبد الكريم الفكون الثائر على "المتصوفين" الذي وصفهم بالزندقة والخروج عن الصواب لأن الإصلاح عنده هو المؤدي إلى معرفة الله. وهو اتباع تعاليم القرآن الكريم والحديث الشريف وإجماع الأئمة، وليس ممارسة الوساطة بتقديس الشيوخ وإقامة الحضرة. فهم في نظره كالذباب يتطفلون على الدين وكذلك الشيخ المغيلي الذي طرح أفكارا ذات قيمة عالية حول الحكم في كتابة الإمارة حيث قال: الإمارة خلافة من الله سبحانه ونيابة عن رسول الله (ص) الإمارة السياسية في ثوب رياسة. وكذلك الشيخ أحمد بن عمارة البوني الذي نادى بحرية الرأي وضرورة استعمال العقل، وعدم التحرج من مخالفة الأوائل وعدم التمسك بالتقليد لذاته. وانتقد السلف منتصرا في ذلك للفكرة القائلة أن العلم منحه غير مقصورة على الأوائل. والشيخ ابن حمادوش الذي له باع كبير في علوم الطب والفلك والرياضيات والمفتي محمود بن العنابي الذي قدم أفكارا قوية في الإصلاح السياسي والاجتماعي، حيث دعا العالم الإسلامي إلى ضرورة الإقبال على العلوم العصرية وقد ألف كتابا بعنوان السعي المحمود في تأليف الجنود ذا علاقة بهذه المطروحات وأهداه إلى والي مصر محمد علي قصد إصلاح أحوال الإدارة والجيش. ويطول القائمة لو استعرضنا أسماء الذين ساهموا من الجزائريين في إثراء مثل هذه القضايا الفكرية الحديثة وغيرها، ومنهم الأمير عبد القادر والحسن بن عرور وأحمد بوضربة وحمدان خوجة

فأحمد بوضربة مثلا وهو من الشخصيات الجزائرية التي لم تحظ بالدراسة على الرغم من الدور الكبير الذي لعبه. فهو من مواليد 1794 ومن أسرة جزائرية احترفت مهنة التجارة. وكان والده قد تولى وظيفة خزناجي

كان أحمد بوضربة من العناصر الأولى التي أعلنت ميلها للسلطة الفرنسية وتولى عدة مناصب هامة منها رئاسة المجلس البلدي ورئاسة لجنة مركزية

حكومية (1830) ومع ذلك كان موضع شبهة في نظر رجال الاحتلال فنفي إلى باريس حيث لعب أدوارا سياسية على غاية من الخطورة

يتضح من آثار أحمد بوضربة خاصة مذكراته التي سلمها للجنة الإفريقية (1833) أنه كان ممن انتقدوا السياسة الفرنسية في الجزائر بالقوة ومن الطامحين في تحديث الجزائر حيث وصف في مذكراته هذه تجاوزات رجال الاحتلال ومآسي الجزائريين، وطالب بإدماج الجزائريين في الحضارة الأوروبية بدءا بتأسيس نظام حكم فرنسي قوي في الجزائر على غرار الأنظمة الأوروبية القوية. وقدم مشروع عمل مقترحا فيه على السلطة الفرنسية أن تعمل بإحدى النقاط الخمس اختيارا كحل مناسب وهي

1. الاستيلاء على الجزائر بالقوة والعنف
2. التخلي عن البلاد والجلاء عنها نهائيا.
3. احتفاظ السلطة الفرنسية لبعض الموانئ فقط
4. الاحتفاظ بالعاصمة ومدينتي عنابة ووهران مع تكوين حكومة أهلية تدفع الضرائب لفرنسا
5. احتلال الجزائر كاملة وحكمها بالعدل والإنصاف.

وكان أحمد بوضربة من أنصار الحل الأخير شرط أن يكون على رأس هذه الحكومة مجلس استعماري يتشكل من الوالي كرئيس بمساعدة 6 أعضاء وكاتب، بجانب مسلم وتكون مهمته استشارية. على أن يزود هذا المجلس بما يلزم من معلومات لفهم العقلية الجزائرية ويساعد هذا المجلس الاستعماري مجلس آخر يتكون من خيرة العناصر وهم ثلاثة من الفرنسيين وخمسة من المسلمين واثنان من الإسرائيليين على تكون مهام هذا المجلس البلدي إدارية فقط. أما الأمور الأخرى كالأحوال الشخصية لا بد من إخضاعها إلى مجلس قضائي يتكون من كاتب ضبط وحاجبين وثلاثة مترجمين (مسلم ويهودي ومن عن فنصلية) فيكون مجموع أعضاء 11 عضوا واقترح ضرورة الاستئناف في الأحكام على مرحلتين الأولى استئناف أمام المجلس الاستعماري والثانية التماس العفو من ملك فرنسا

طالب باعتماد مبادئ الشريعة الإسلامية في حل القضايا المتعلقة بالأحوال الشخصية للجزائريين ويشترط ذلك بتأسيس محكمة ملكية يديرها قاضيان مسلمان هذا في المناطق الخاضعة للفرنسيين. أما في الأماكن التي لم تخضع بعد فيكون مطلق على السلطة الفرنسية أن تعين فرنسيا يكون برتبة مدير يساعده مسلمان وحاشية بجانب تشكيل لجنة خيرية لإدارة أملاك الأوقاف. وطالب بضرورة استعادة المسجد على حاله وإعادة ما أخذته السلطة الفرنسية وقف مسجد إسلامي وهو أنها ملك لكافة المسلمين. وطالب بناء المستوصفات لعلاج والملاجئ للمرضى وتدريس اليتامى وطالب بتسجيل المواليد والوفيات وعقود الزواج وعلى فرنسا أن تفرض الضرائب بقوانين ثابتة ومعروفة على القبائل. واستحسن إصدار جريدة تتحدث للجزائريين عن الصناعة والزراعة وفنون عدة وأخرى لحث الجزائريين على غرس الأشجار المثمرة وبناء شبكة عمرانية حديثة، على أن تطلق حرية التجارة خاصة المواد المتعلقة بالملاحة كالبريتون. بناء على هذا العرض المختصر نستخلص ثلاثة أمور:

الأول هو أن أحمد بوضربة يعد من العناصر التي رضيت بالاستعمار الجديد في صورته المتحضرة الحديثة فهو من الأوائل الراغبين في سياسة الإدماج القائم على أن تكون الجزائر امتدادا لفرنسا شرط أن يكون التماثل بين الاثنين، وقد بقيت هذه السياسة معارضة حتى من الفرنسيين أنفسهم بحجة أن في التطبيق صعوبة لأنه لا يعقل أن يطبق قانون واحد على شعبين مختلفين ثقافيا، أي أنه لا يوجد تماثل اثني واقعي الذي هو شرط للتماثل القانوني أيضا أن هذه السياسة الاندماجية تعرقل تطور الاستعمار الذي من مهامه نشر الثقافة الأوروبية على حساب ثقافة الشعب المستعمر.

الثاني هو أنه لم يكن راغبا في عودة النظام العثماني للبلاد ولعل هذا ما يفسر سبب ميله لفرنسا قبل أن تطأ أقدامها أرض العاصمة. مثلما يفسر سبب عدائه لأنصار النظام العثماني أمثال / الحاج أحمد باي وحمدان خوجة ومناصرته بقوة وجهرا للأمير عبد القادر الذي ألح على الحكومة الفرنسية أن تتفاوض مع هذا الأخير لإقرار السلام في الجزائر

ثالثا أن أحمد بوضربة من الذين كانوا على دراية بالقانون الإداري والمدني الفرنسي ومن الراغبين في تحديثهما في الجزائر. وهو من العناصر المؤمنة بالتعايش السلمي بين الأديان. فهو من الذين ساهموا نظريا وتطبيقيا في التحديث العربي للجزائر

مما تقدم يتضح لنا التمفصل الذي عرفه الفكر العربي الإسلامي الذي تميز بفكر سلفي نصي وعقلي، وفكر "صوفي" غيبي، وفكر "ليبرالي" مبهم

الجانب الفكري من «المقاومة» "الشعبية" ضد التوسع الفرنسي[1]

1 نشر هذا المقال في مجلة، <u>نعم</u>، الصادرة عن جمعية التاريخ والمعالم الأثرية العدد 2 بعنابة، جزائر 987،

السؤال الذي نبدأ به الحديث هو ما هي خصائص وملامح هذه «المقاومة» الفكرية؟ وستكون الإجابة وفقا للنقاط الآتية

1 البناء الاجتماعي الجزائري عشية الاحتلال.2 مستوى الفكر في الجزائر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر.3 طبيعة الاستعمار الاستيطاني الفرنسي للجزائر. 4مواطن القوة ومواطن الضعف في «المقاومة» الفكرية

1- البناء الاجتماعي الجزائري

من الضروري التحدث ولو باختصار عن هذا الجانب الاجتماعي لفهم «المقاومة» في بعدها الفكري لأن الهرم الاجتماعي كان يقوم أساسا على مجتمع المدينة ومجتمع الريف. فمجتمع المدينة يتميز بوجود الطبقة المالكة والحاكمة لأجزاء من البلاد. ويتشكل معظم أفرادها من العثمانيين والحضريين والكراغلة ورجال "المخزن" وهذا في كبريات المدن الجزائرية كالعاصمة وقسنطينة ومليانة ووهران وتلمسان. وبالرغم من قلة عدد أفراد هذه الطبقة إلا أنها كانت ميسورة الحال بالنسبة إلى غيرها بفضل الامتيازات المادية والمعنوية التي كانت تتمتع بها. ولهذا الوضع الاجتماعي دوره في تكوين نخبة مثقفة من الجزائريين كان لهم دور كبير في «المقاومة» خاصة في جانبها الفكري مثلما سنرى

بجانب هذه الطبقة الحاكمة كانت الطبقة التابعة وتشكل أغلبية سكان المدينة وتتكون من العامة ذات المستويات الاجتماعية المتدنية والمسماة (بالبرانية (التي تعيش أجيرة إذ نزح معظم أفرادها من الأرياف وتمركزوا في المدن والضواحي

وأدى هذا التباين بين الفئتين الاجتماعيتين داخل الهرم الاجتماعي بالمدينة إلى تذبذب وتذمر من العامة ضد الطبقة الحاكمة وهو ما سيعمل على إضعاف «المقاومة» "الوطنية" ويساعد الحملة الفرنسية على التوسع

وفيما يتعلق بمجتمع الريف فهو يختلف في كثير من الأمور على مجتمع المدينة، لأن السكان به يشكلون الأغلبية والوحدة الاجتماعية والإدارية والاقتصادية كل في منطقة نفوذه. وتقوم هذه الوحدة على تملكها للأرض وعلى رابطة الدم. وكان هؤلاء يساهمون بطريقة مباشرة في تمويل خزينة الدولة. وتعتبر كل من الأسرة والقبيلة والأرض والنسب الأيديولوجية التي كانت تتحكم في الريف. فكانت رابطة الدم عامل توحيد لأفراد المجتمع الجزائري في الريف. وهذا ما يفسر تمكن أسر جزائرية باعتمادها على العصبية من تولي القيادة الواسعة خلال مراحل تاريخية معينة مثل أسرة بني هاشم بالغرب وبني جلاد في الوسط وآل المقراني وابن قانة في الشرق. لكن مثل هذه الأسر لم تتطور وتشكل أنظمة سياسية قوية. وهذا ما يمكن أن نفسر به طبيعة «المقاومة» في الجزائر للاحتلال الفرنسي

كان هذا التركيب الاجتماعي في الريف معمول في إحداث التباين بين طبقتين أو فئتين متميزتين اجتماعيا واقتصاديا: الأولى هي الأرستقراطية (التي يسميها البعض الإقطاعية) التي كانت تتكون من الشيوخ المرابطين وشيوخ القبائل ورجال المخزن. والثانية من عامة الفلاحين الجزائريين التي كانت تسيطر بشكل واسع على الريف وتتقاسم مردود إنتاجه. وبوجود هذا النظام الاجتماعي والإداري كانت قاعدة الهرم الاجتماعي الواسع هي المتجهة

الوحيدة. وفي نفس الوقت كانت الأكثر استغلالا من طرف الطبقة الحاكمة «الإقطاعية» وهو ما سيؤثر على «المقاومة» الوطنية

ومن جانب آخر إن النظام العثماني أحدث سلطات متنوعة في المدينة وفي الريف بوقوفه إلى جانب بعض القبائل على حساب بعض القبائل الأخرى، وإلى بعض الطرق "الصوفية" على حساب الطرق الأخرى. وهو ما سيكون له مفعول وآثار على «المقاومة» الوطنية

أيضا فمعروف عن ثقافة في الجزائر خلال العهد العثماني أنها لم تحظ باهتمام كبير ومستمر من طرف رجال الحكم خلاف ما حظيت به قطاعات أخرى عسكرية واقتصادية ومدنية وكل ما حدث من تطور ثقافي في الجزائر إنما قام على أكتاف المجتمع الجزائري من جهة؛ وعلى ذاتية الثقافة العربية الإسلامية من جهة أخرى ومن ثم نشأت نخبة متنورة جزائرية من أصحاب الثقافة التقليدية التي تصدت للاحتلال الفكري الفرنسي مثلما سنرى في حينه

2 – مستوى الفكر في الجزائر خلال النصف الأول من القرن 19

مما تقدم يتضح أن البناء الاجتماعي الجزائري يختلف من المدينة إلى الريف الأمر الذي يعكس التكوين الفكري للتشكيلات الاجتماعية الذي هو بدوره يختلف من شريحة إلى أخرى. ويمكن حصر الفكر في مستويات متعددة هي:

– **الفكر السلفي** القائم على أسس القرآن الكريم والسنة الشريفة (فكر نصي)

– **الفكر "الصوفي"** القائم على قضايا ميتافيزيقية مناقضة للسنية في جوانب كثيرة

– **الفكر التجديدي** القائم على حرية الفكر والتجديد والانبهار بالغرب

ويعكس لنا التكوين الاجتماعي الجزائري وعلاقته بالوضع السياسي الضعف الكبير في تلاحمه وترابطه من حيث الشعور بالوحدة الواسعة في إطارها الجغرافي الحالي ولعل سبب ذلك يعود إلى أن النظام العثماني لم يعمل على تكوين رأي وطني عام على الرغم من الصعوبة في الحديث عن وجود رأي وطني واسع وواحد موحد في هذا التاريخ وكان هذا الأمر يؤدي إلى أن تضعف «مقاومة» في كل جوانبها إلا أن الذي حدث هو أن هذه «المقاومة» وخاصة في جانبها العقائدي استمرت قوية والسؤال المطروح هو ما هو السر في ذلك؟

سنحاول التعرف على هذا من خلال العرض لمساهمات بعض الأطراف الجزائرية في «المقاومة» الوطنية.

3– طبيعة الاستعمار الفرنسي في الجزائر

معروف أن الحكومة الفرنسية لم تكن واضحة في سياستها بداية الأمر من ذلك أنها التزمت الحذر والترقب وبالتالي التردد في أي شكل من أشكال الحكم يمكن إقامته في الجزائر بعد أن أتمت احتلالها. ويبدو أن ذلك التردد لم يكن عن تقصير من جانب السلطة الفرنسية إنما كان محكوما إلى عاملين الأول تفطنها إلى أن ظروف الجزائر والظروف الدولية كانت تقتضي ملازمة هذا النوع من السياسة. الثاني يتعلق بأوضاع فرنسا الداخلية. وبعد أن اتضحت لها الأمور أعلنت السلطة الفرنسية عام 1834 رسميا أن الجزائر امتداد لفرنسا.

والحقيقة أن هذا الإعلان ليس بالأمر الغريب بل هو نتيجة طبيعة لأهداف الاستعمار الاستيطاني. لأنه من خلال دراسة الحركة الاستعمارية داخل العملية التاريخية نتأكد حقيقة وهي أن الاستعمار الفرنسي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يتخلى عن الجزائر بسهولة. أو أن يتوقف عن المزيد من التوسع خارج حدود الجزائر وإلا يكون هذا متناقضا مع فلسفة الاستعمار ذاته

لأن المعروف أن للاستعمار أشكالا تطورت عبر مراحل تاريخية منها: الاستعمار التقليدي والاستعمار الاستيطاني والاستعمار كدولة عادية

فيما يتصل بالاستعمار الاستيطاني فإن أساسه اجتماعي واقتصادي وثقافي لأن المتعارف عليه أن الدولة تتكون من إقليم وشعب وحكومة ومقومات بينما تقوم فلسفة هذا الاستعمار على أن أساس الدولة يقوم على إحداث نظام غريب على ذلك الإقليم من طرف قوة ما وهو ما حدث في أمريكا وجنوب إفريقيا وفلسطين وقد حاولت أن تطبقه فرنسا لأن من أهداف هذا الاستعمار تحقيق ثلاثة أشياء

الأول: إقامة كيان اجتماعي غريب

الثاني: إقامة نظام سياسي جديد

الثالث: ربط الشعب المستعمر، بحضارة وثقافة المستعمر الغربي

ويتم هذا الاستعمار خلال أربع مراحل أساسية هي.

الأولى- الغزو والاحتلال

الثانية: السيطرة المنظمة والواسعة

الثالثة: تشجيع الهجرة الاستيطانية لبناء قاعدة ديموغرافية غير طبيعية موالية ومناصرة للقوة العسكرية

الرابعة- الانفصال في النهاية عن البلد الأم

وقد حاول الاستعمار الفرنسي تطبيق هذا النوع من السياسة فنجح في عملية الغزو والاحتلال والسيطرة العسكرية والإدارية الواسعة وكذلك في إقامة كيان اجتماعي ونظام سياسي ولكنه فشل في تحقيق هدفه الكبير والمتمثل في ربط الشعب الجزائري حضاريا بفرنسا. وفشل كذلك في الانفصال عن فرنسا على الرغم من محاولات معمرين وضباط جيش للوصول إلى هذا فكان الفشل خلاف ما وقع في أمريكا وجنوب إفريقيا لأن موجة الاستعمارية تتحسن في تشجيع الهجرة الأوروبية التي تعد لونا من ألوان الاستعمار الاستيطاني حيث وضعت هذه الهجرة نفسها في وضع متناقض مع الجزائريين وأدى ذلك التناقض إلى نتيجة طبيعية وهي استعمال العنف كوسيلة للحصول على الأهداف المشار إليه، ومن ثم صارت العلاقة بين الاستعمار والسكان الجزائريين علاقة إبادة ونفي وكفاح

وانتقلت القضية الجزائرية من قضية وطنية تخص العلاقات الفرنسية الجزائرية إلى قضية دولية استقطبت اهتمام الرأي العام الشعبي والرسمي بل وتطورت من قضية اقتصادية ذات مصالح مشتركة بين دول حوض البحر المتوسط وشركاته إلى قضية فكرية وسياسية شغلت بال المفكرين على مختلف مستوياتهم بطرحها قضايا مثل قضية الحرية والمستقبل والإدماج والمساواة والتوسع والاحتلال والجلاء والاستقلال والدين والحضارة والتجارة الحرة والصناعة الوطنية

والقومية والسؤال ما هي إسهامات «المقاومة» الفكرية في تطوير مثل هـــذه القضايا؟

4- مواطن القوة والضعف في «المقاومة» الفكرية.

قبل الحديث عن هذه «المقاومة» يحسن بنا أن نشير إلى بعض المفاهيم وأولها.

مفهوم الفكر الذي هو الشيء ذاته الذي يدور حوله التفكير ومهمـــه معالجة القضايا بالتأمل والمحاكمة والتمييز قصد الوصول إلى رأي معين وبالتالي إلى موقف معين تجاه قضايا خارجية عن الذات ومن ثم يمكن الحكم عـــلى أن الفكر الإنساني عامة والجزائري بوجه خاص إنما هو نتاج لمخـــزون فكـــري اجتماعي مترسب من قديم ومتصل الحلقات بالحديث.

مفهوم الكفاح السياسي إن السياسة أفكار، لأن الصراعات السياسية عبر مراحلها التاريخية هي في جوهرها صراعات بين اتجاهات الأيديولوجيات نفسها أو بينها وبين العقائد وهي في النهاية مذاهب وآراء وأفكار غالبا ما تظهـــر في حزب سياسي يتمسك ببرنامج معين ملزم لأعضائه بالتعصب لمبادئه وغالبا مـــا تكون هذه الأحزاب على جانب عال من التنظيم.

ولهذه الأحزاب والأنظمة ممارسات عملية ونظرية وهي التي تسمى بالكفـــاح السياسي الذي يقوم به شعب ما /أو مجموعة ما / ضد قوة حاولت فرض إرادتها وفرض سيادتها على ذلك الشعب أو على تلك المجموعة. وللكفـــاح أشـــكال ووسائل مختلفة منها الكلمة والسلاح والمقاطعة، وبناء على هذا يكـــون معـــنى الكفاح السياسي في النهاية الحصيلة الفكرية التي تقوم على التصـــور للواقـــع المتشكل من التراث الحضاري لذلك الشعب ولأهداف ونوايا ذلك النوع مـــن

الاستعمار ومن هذا التصور ينطلق الكفاح السياسي فيرسم الطريـــق ويحـــدد الهدف ومن ثم يساهم في تشكيل وتثمين مرحلة من مراحل ذلـــك الشـــعب ويساهم في تغيير الواقع وإثراء الفكر وبهذا الكفاح تنشأ العلاقة بين المطالبـــة بالحقوق الشرعية وبين تلك التي تحاول أن تكرس سلطتها الغازية، وتتطور هذه العلاقة لتصبح صراعا بين الأيديولوجية والسلطة السياسية

وأول مراحل الكفاح السياسي الفكري الوعيُ وقد ظهر هـــذا الـــوعي في العصر الحديث في الجزائر عند العلماء وأنصاف العلماء الذين أخـــذوا عـــلى عاتقهم مسؤولية الدفاع عن البلاد حين فضحوا نوايا الاســـتعمار الاســـتيطاني وكانوا أفرادا وجماعات وأحزابا غير محترفة ويجري الكفاح السياسي عادة على مستويين رئيسيين وهما:

الأول يكون داخليا بين الأفراد أو الجماعات أو القبائل من أجل الوصول إلى السلطة أو المشاركة فيها بشكل أو بآخر. والثاني بـــين الســـلطة الحاكمـــة أو الغازية والمحكومين.

وهنا يكون الكفاح السياسي عملا سياسيا منظما محترفا أو غير محترف يقوم به طرف ما قد يكون هو صاحب الحق الشرعي من أجل التأثير على الســـلطة والضغط عليها لغاية هي ترك البلاد لأهلها أو إرغامها على وضع مشاريع تخدم الصالح العام

يختلف الكفاح السياسي بل الصراع السياسي من مستوى إلى آخر. ومـــن فترة تاريخية إلى أخرى. ومن تفسير إلى آخر؛ من ذلك أن الماديين الماركســـيين يرون المعارضة السياسية هي في الواقع ناتجة عن البناء الاجتماعي والاقتصـــادي

انطلاقا من مفهوم أن طرق الإنتاج تحدد وتولد طبقات اجتماعية متنازعة فيما بينها منها المسيطرة ومنها المسيطر عليها، إذ بالوسائل المادية والإعلامية تستخدم الطبقة الأولى الطبقة الثانية وتجعل منها أداة طيعة من أجل تنفيذ مشاريعها فما يكون على هذه الأخيرة إلا الثورة عليها. وقد يكون الكفاح السياسي عملية طبيعية في المجتمع وظاهرة تاريخية تبعثها جواهر الإنسانية القائمة في أي مجتمع، مثلما تكون السبب الدافع إلى الصراع ضد الآخرين من أجل البقاء والحفاظ على الذات. ولهذا التفسير علاقة بمذهب بفلسفة البرجوازية من حيث المنهج ولقناعته بالتنازع من أجل البقاء وإن كان عماد هذه الفلسفة الاقتصاد الداعي إلى التنافس الاقتصادي الحر، والمقصود هنا بالتنازع هو في الفكر الليبرالي لا الفكر الداروني.

من الناحية المنطقية -إن ينقل التنازع من أجل البقاء- من المستوى المادي إلى مستوى الفكري يكون أكثر حدة؛ لأن عامل المنافسة في ميدان العسكري يفرز صفوة بل نخبة أكثر كفاءة وأكثر قدرة في التأثير على الإدارة والسياسة القائمة في حين ما يكون التنازع على المستوى المادي سيساهم في تشكيل طبقة حاكمة ومالكة للبلاد تتقاسم الإنتاج دون بذل الجهد المستحق.

إن هذا التفسير لا يصدق في رأيي على نوع الكفاح السياسي الذي عرفته الجزائر لأن من القضايا الأساسية التي يجب الاعتقاد والاقتناع بها هي أن إدخال الدين الإسلامي في مضامين القوى السياسية العامة ليس بالأمر الغريب مثلما يبدو للبعض لأن السياسة تختصر أشكالها محدودة إلى مفهومين أساسيين هما الدين والأيديولوجية فإن كان عماد السياسة المقوم الأول كانت ذات قيم

أخلاقية مصيرية وإن كان عمادها المقوم الثاني تكون لا قيم أخلاقية لها أو تكون لها بالأصح قيم أخلاقية معاكسة. وعلى هذا الأساس يمكن القول إن ما ظهرت من «مقاومة» فكرية جزائرية ضد الاحتلال الفرنسي إنما كان أساسها الدين أكثر لا الأيديولوجية وأن كل مستويات الفكرية الجزائرية التي رفعت لواء «مقاومة» جعلت من الدين الإسلامي العماد الأقوى في كفاحها على الرغم من اختلاف تكوينها واختلاف وجهات نظرها إذ كانت شريفية وسلفية وطرقية صوفية وتجديدية. إذ كان الكل يبعث الاحتلال باسم "المسيحي الكافر" ومن شعاراتهم "الجهاد" وخاصة من طرف شيوخ الدين السنيين وعصريين الذين مزجوا الدين بالسياسة وذهب بهم الأمر إلى التفكير في تولي السلطة في الجزائر بعد أن حدث فراغ بها إثر سقوط النظام العثماني بحيث دعوا كل السكان إلى ضرورة إعلان الولاء إلى بعض الزعامات الجزائرية. وقد لعبت الزوايا الدور الكبير عبر أنحاء الوطن في تنظيم الصفوف، ويدل على ذلك أن كل الانتفاضات التي قامت ضد التوسع الفرنسي إنما بتحريض من شيوخ كانوا ينتمون إلى زوايا. وكان الجزائريون يقدمون لها عروض الولاء متعصبين لها، ومن ثم يمكن الحكم على هذه الطرق بأنها بقدر ما كانت نقمة بإغراقها لكثير من أفراد المجتمع في الخرافة والشعوذة بقدر ما كانت نعمة لقيامها بدور «المقاومة» في الحركة الوطنية الجزائرية وفي مقدمتها الطريقة الرحمانية والقادرية وأكبر دلالة على ما نقول إن «المقاومة» التي قادها الأمير عبد القادر كان أساسها صرفا جانب الطرق الأخرى كالطيبية والدرقاوية والتيجانية. وبموقف شيوخ الدين هذا كانت «المقاومة» الوطنية «مقاومة»

شعبية لا «مقاومة» عفوية على خلاف ما كان من طرف «المقاومة» التي قام بها أصحاب الفكر التجديدي (حمدان خوجة مثلا)

الملاحظ أن الفكر "الصوفي" وجد في الجزائر قبل مجيء العثمانيين وقد سمح وحاول الجزائر لبعض الطرق بأن تنافس المرابطين فيما بينهم وبين العلماء وتعدى ذلك إلى المنافسة بين المدرسة والزاوية فنشط الفكر الروحي وضعف الفكر العقلي.

ولنا أن نتساءل عما إذا كانت هذه «المقاومة» عفوية تلقائية أم واعية؟ إن تقييم المقاومة الوطنية وخاصة في بعدها الفكري يحكم على بعض المستويات الفكرية بأنها تحركت بطريقة عفوية، أي بوازع ديني وعزة نفس لا كحركة سياسية واعية ومدركة للواقع وأخص بالذكر الطرقية التي لم تكن على دراية بأمور الأبعاد السياسية الحديثة، ولعل هذا ما يفسر بعض المواقف الثائرة على الأمير عبد القادر حين فتح هذا الأخير باب التفاوض مع السلطة الفرنسية وعقد معها معاهدات. لأن شيوخ هذه الطرق بناحية الغرب الجزائري اعتبروا هذا الأمر مناقضا لما تدعو إليه الشريعة الإسلامية التي لا تسمح بالتفاوض – حسب رأيهم – (مع الكافر) في حين كان الموقف آنذاك يتطلب من الأمير استخدام الطرق الدبلوماسية لتقوية الصفوف الوطنية

ويكون الحكم على المستوى الفكري الآخر التجديدي أنه كان واعيا بالواقع وهو ما يمكن على أساسه التمييز بين نوعي «المقاومة» والمتمثلين في الطرقية والتجديدية إذ سلكت الأولى طريق العنف في الريف ومن ثم أحدثت علاقات عداء ونفور ضد الاحتلال في حين سلكت الثانية خاصة في العاصمة وهي

المشكلة من النخبة الوطنية طريق التفاوض والسلم مع السلطة الفرنسية لأنها أدركت تفوق خصمها وعدم مناسبة الظروف لها.

وحسب التقدير أن على المفكر أو المصلح أو المكافح ألا يكتفي بعرض معلومات قالها غيره أو جملة من النظريات والتطورات الحضارية إنما يجب عليه أن يفهم الواقع ويدرك العوامل القوية التي تسير هذا الواقع ومن ثم يصبح من الضروري على هذا المفكر أن يصف الواقع ويقارنه بوقائع أخرى ومن ثم يجب عليه ألا يجهد نفسه في البحث عن مبررات لتمويه وتغطية بعض القضايا فيكون قد عمل على إسكات هذا الواقع وعزله عن حركة التطور. إذن عليه ألاّ يهمل هذا ومن ثم يتحول الفكر الحقيقي إلى كفاح سياسي عملي لا إلى خطابيات. إن رسالته لا بد وظيفته فتخرج الفكر بعدها من الدائرة الضيقة لحديثه عن الأفراد بفئة المثقف والمتصوف ثم إلى دائرة أوسع تساهم في بعث معالم حضارية

وقد حدثت محاولات من هذا الفكر الواعي للواقع لدى بعض الجزائريين من أصحاب الفكر التجديدي أمثال المفتي محمد العنابي وحمدان بن عثمان خوجة وأحمد بوضربة والحسن بن عرور والأمير عبد القادر وغيرهم. إذ استطاع أولئك أن يعوا تراث شعبهم ويدركوا واقعه ويعرفوا متطلباته والظروف التي من حوله فبذلوا جهدا لإخراجه من دائرة التخلف – بالفكر – رغم ما تعرضوا له من مضايقات ومصادرات ونفي تجاه محاولات الإغراء بالمناصب.

والدارس لآثار معظم هؤلاء الجزائريين يتأكد أن هؤلاء لم يكتفوا بعرض ووصف الواقع عن طريق ترديد النظريات وإنما حكموا على الواقع من خلال

فضحهم للسياسة الفرنسية المطبقة في الجزائر فهذا حمدان خوجة يقول: زعم دي بورمون إنه جاءنا ليقضي على المظلمة القائمة في الجزائر ويعمل على تطبيق القانون بالعدل والإنصاف. ويدعي كلوزال أنه من حزب الأحرار. فهو يستخدم مقياسين مختلفين متناقضين.. فصار من الأغنياء على حساب ثروة الجزائريين وشرف الأمة الفرنسية ومن ثم أمكن الحكم عليه بأنه الرجل القائد ذو الوجهين. وتتأكد حقيقة لدى الجزائريين وهي أن الفرنسيين لم يأتوا بنية نشر مبادئ الحرية ومقومات المدنية إنما جاءوا بهدف الاستبداد بهم واستعبادهم. وبهذا تكون هذه العناصر الوطنية أمثال حمدان أول من خاطب السلطة الفرنسية انطلاقا من ثلاثة مقومات أساسية هي:

1 مقومات الحضارة الإسلامية

2. المبادئ العامة الداعية إلى حرية الإنسان والمساواة

3 المعاهدة التي أبرمت بين الداي حسين ودي بورمون.

4 فكان حمدان وغيره من العناصر الوطنية على دراية كبيرة بكل تحرك الواقع سواء من داخل الجزائر أم من خارجها فوصفوا سبب نفور الجزائريين من الاحتلال الفرنسي وأرجعوه إلى العوامل الآتية

* استبداد السلطة الفرنسية

* شعور الجزائريين باستعباد أمة أجنبية لهم

* الاختلاف في الديانة

* خشية الذل من القهر

وطرح حمدان تساؤلات فكرية قوية منها هل كان من الضروري أن يصدم الجزائريون في قيمهم الأخلاقية وفي عقيدتهم الدينية؟ ثم يواصل القول، لأنه من خلال سلوك الولاة في الجزائر نذهب إلى الاعتقاد أنهم يشربون الشقاق من أجل التضحية بالجزائريين وهذا يتنافى مع المبادئ الدستورية. على الرغم من أن للجزائريين الحق في التمتع بالحرية وبكل الحقوق بنفس الطريقة التي تتمتع بها الأمم الأوروبية وإلا لماذا يدرس القانون العام في أوروبا وفي فرنسا ولماذا وجدت مدارس للحضارة والحرية فإذا كان حب وطنكم راسخا في قلوبكم فغير ممكن عدم سماحكم بمطالبة حقوق وكيف لا وهي مشكلكم في حب وطننا ثم طرح حمدان قضية أخرى دلت على التفطن والدراية لما كان يجري على الساحة الدولية وذلك حين قال، هل كانت فرنسا تتبع نفس الأسلوب معنا في الجزائر لو كان الجزائريون يدينون بالمسيحية وما هو الغرض من تقديم سيل منبوذ من الفرنسيين كمساعدات للبولونيين؟ سنهتف فرنسا وحدها بالثلث ونفس الشيء بالنسبة إلى بلجيكا وبولندا والبرتغال. وهذه ترى اليونان تتكون بسرعة وبلجيكا تنفصل عن هولندا والغريب في هذا أن تلك الشعوب تمد بأموال الجزائريين على الرغم من أن الجزائريين أناس يحكمون بطرق تعسفية لأن نظلم في الجزائر وإذا رفعنا أصواتنا ننفى وهو يتعارض كلية مع المبادئ التحررية

كانت «المقاومة» المسلحة الجزائرية ضعيفة أمام القوة الفرنسية سواء «المقاومة» العسكرية التي تزعمها شيوخ الدين فكانت «مقاومة» شعبية عامة ولم ينقصها إلا عامل الوعي السياسي العميق فقد كانت تعتمد على قوة إيمانها

وإمكانيات بدائية أم «المقاومة» التي تزعمها أصحاب الفكر التجديدي التي فهمت الواقع وحاولت تطويره، إلا أنه كان ينقصها عامل السلاح والسند الشعبي القوي الواسع من طرف قاعدة الهرم الاجتماعي الجزائري سواء في الريف أم في المدينة؛ وهذه في رأينا المفارقة التي تميزت بها «المقاومة» الجزائرية خلاف الحركة الوطنية السياسية أو الثورة التحريرية اللتين وجدتا الدعم الشعبي والسياسي الواسع ومن ثم لم تتعد «المقاومة» في مرحلتها الأولى الأمر الذي أدى إلى أن تتضافر جملة من العوامل كانت لصالح الاحتلال الفرنسي وبالرغم من ذلك فقد حققت هذه «المقاومة» نتائج كثيرة أولها أنها أثرت على السياسة الفرنسية سواء بشكل مباشر أم غير مباشر وكذلك على الرأي العام الفرنسي، من ذلك صوت المعارضة الذي انتقد بقوة السلطة الفرنسية الحاكمة إلى درجة أن الحكومة الفرنسية صححت كثيرا من مواقفها تجاه الجزائريين حيث أوفدت لجانا خاصة لدراسة المطالب التي رفعها بعض الجزائريين. أيضا أن العناصر الجزائرية نقلت القضية الجزائرية من قضية تتعلق بأحوال فرنسا والجزائر إلى قضية فكرية تتعلق بمطروحات سياسية وعلمية. أيضا أن ما قدمه أولئك الجزائريون من أفكار كان مرحلة تمهيدية لتطور وظهور أحزاب وجمعيات وطنية فيما بعد، من ذلك أن جمعية العلماء كانت في رأينا امتدادا لما سبق من مطروحات فكرية جزائرية. وأيضا أن ما ظهر من أفكار دعت إلى الإدماج إنما هو امتداد لأفكار جزائريين دعوا إلى ضرورة تطبيق هذا اللون من السياسة خاصة أفكار أحمد بوضربة والحسن بن عريوز اللذان نادا منذ بداية الاحتلال

بضرورة تطبيق سياسة الإدماج نظرا لما له من مصلحة تخدم الشعبين الفرنسي والجزائري.

مما تقدم نخلص إلى القول إن «المقاومة» الوطنية كانت ثرية ومتعددة الأبعاد وأن مفكرينا الجزائريين أدوا أدوارا مشرفة على الرغم من قلة إمكانياتهم. وكان للمقاومة الفكرية دور مستمر ولها الفضل الكبير في بعث الوعي السياسي في أوساط الشعب الجزائري خاصة العناصر الوطنية المتفتحة وقد تمكنت هذه «المقاومة» الفكرية من حفظ الموروث للشخصية الجزائرية في عمقها العربي الإسلامي انطلاقا من الزوايا ومن جهود الشيوخ

1 مصادر ومراجع معتمدة

2 محمد بن دبه، أصول السياسة المغربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976

3 إبراهيم العدوي، المغرب العربي بين الأمة العربية والاستعمار الجديد، دار النهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1969

4 حلمي بن عيسى، قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر، دار التنوير للطباعة والنشر، ط 1 بيروت 1981.

5 سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ج2، ش. و. ن. ت، الجزائر 198

6 [illegible]، ش. و. ن. ت، الجزائر 1976

7 محمد بن عبد الكريم، محمد بن عثمان خوجه ومذكراته، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت 1972

8 مجدي حماد، النظام السياسي الاستيطاني، دار الوحدة ط1، بيروت 1981

9 Hamdan k. le miroir tr par H.D. goeschy Paris 833

0 Yver (G.) «mémoire de Boudarba», in R.A 1913 P.P 218 244

إسماعيل "عربان"
والسياسة الفرنسية في الجزائر[1]

1 نشر هذا المقال في مجلة سيرتا التي يصدرها معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، العدد 4، الجزائر 1980، ص ص 71 80

دراسة شخصية إسماعيل "عربان" والسياسة الفرنسية في الجزائر (1840-1870) تعد من أهم الدراسات في تاريخ الجزائر الحديث نظرا لما لهذه الشخصية من أبعاد فكرية ومواقف سياسية، من جهة ولأهمية هذه الفترة من تاريخ الجزائر، من جهة أخرى

لأن في دراسة هذه الشخصية دراسة لتيار فكري أثر في تاريخ المرحلة ونعني به تيار السان سيمونية[1] وانتشارها سواء في مصر أم في الجزائر ومدى قوتها في توجيه السياسة الفرنسية في هذا البلد. وكذلك دراسة للصراعات التي استمرت طويلا بين المدنيين (المعمرين) والعسكريين (ممثلي الحكومة الفرنسية) وبين المعمرين والأهالي. ودراسة أيضا لمشروع قيام "المملكة العربية" الذي حاول تطبيقه نابليون الثالث[2]

وبعد اطلاعنا على دور الوثائق وبخاصة في بعض الأرشيفات الفرنسية اتضح أن موضوعا كهذا جدير بالبحث. وتأمل في أن أقدم رسالة بحث في هذا الشأن خاصة وأن الذي شجعنا أكثر توفر المادة الخبرية لأن أرشيف ما وراء البحر Archives Outre-M بأكس - أون - بروفنس - غني بالوثائق القيمة التي

---

1 - نسبة إلى سان سيمون المولود في باريس يوم 17 أكتوبر 1960 اعتنق مبادئ الثورة الفرنسية ودعا إلى اتحاد مختلف الطبقات في تيار واحد خدمة للصناعة وبعد وفاته عام 1825 انتشر أتباعه وعلى رأسهم أنفانتان (Enfantin)

2 - تولى نابليون الثالث (1808- 1873) الحكم من عام 1848 إلى 1870.

تدفع الباحث كي يكتب عن هذه الفترة وخاصة عن إسماعيل "عربان" والدور الذي لعبه في الجزائر

من هذه الوثائق نذكر الرسائل التي تبادلها مع شخصيات سياسية هامة محفوظة على أربعة ميكروفيلم تشتمل على حوالي ستمائة صورة (600)[1] بالإضافة إلى الوثائق الأخرى التي لا تقل أهمية[2]

هذا عن جانب من الوثائق بهذا الأرشيف. أما مكتبة لارسنال (الترسانة) (Bibliothèque de l Arsenal) فهي غنية جدا بالوثائق الهامة التي تتحدث عن إسماعيل "عربان" فيها ما يقرب من سبعمائة (700) رسالة تبادلها مع شخصيات لعبت أدوارا هامة في السياسة الفرنسية في الجزائر. بجانب مخطوط ذي 53 صفحة من الصفحات العادية مكتوب بيد إسماعيل "عربان" نفسه يحوي معلومات قيمة عن حياته ونشاطه السياسي[3] زيادة على هذا يتوفر في المكتبة الوطنية بباريس والجزائر العاصمة كم هائل من المادة المصدرية التاريخية

من هو "عربان"؟

ولد "عربان" بكيان (Cayenne) عاصمة غيانا (Guyane) في أمريكا الجنوبية يوم 31 ديسمبر 1812 وتوفي في الجزائر العاصمة يوم 01/31 4188. كان والده يحترف التجارة وأمه أمة سوداء جاءا به إلى

1- A.O.M 4 Micro, 1x1

2. Ibid. F80/ 375, F80/373

3. Bibliothèque de l 'Arsenal, Catalogues (W29-12), (W29-10,

مرسيليا حيث التحق بإحدى الثانويات التي لم يتمكن من مواصلة الدراسة بها بسبب مضايقة زملائه له لكونه أسود اللون. وكانت هذه المعاملة السيئة من العوامل التي دفعته إلى اعتناق المذهب السان سيموني القائم على خطاب إنساني[1]

وفي سنة 1833 كلفه الأب الروحي وهو أنفانتان (Enfantin) بالسفر إلى مصر لنشر مبادئ السان سيمونية القائمة على فكرة أساسية هي توحيد العالم الشرقي والغربي على أساس أن هذا العالم وحدة واحدة موحدة - حسب رأيهم - ومملكة لله وحده[2] وأن ذلك لا يأتي إلا عن طريق ربط القارات بخطوط مواصلات بين إفريقيا وآسيا وأمريكا وأوروبا لتتمكن الشعوب من التقارب بعضها البعض

وفي مصر رغب "عربان" أن يمارس العمل في مسرح وأن يكون ممثلا، لا [illegible] أساتذة [illegible] بالعمل [illegible] أعجب

1 - للمزيد يراجع

Marcel (L.), Les St. Simoniens en Algérie, Paris 1941, p-p. 67-68

2 - [illegible] على أن [illegible] في مصر [illegible] توحيد الشرق [illegible] فيها [illegible] وتقديمها في مصر [illegible] 1967 ص 124

في أن أراك تمثل وتردد كلام غيرك، يجب أن تكون أنت مسمعا بكلامك ومسرحك نفسك وشعبك[1]

سافر "عربان" إلى دمياط وانكب على تدريس اللغة الفرنسية لأبناء المصريين الذين نجد منهم الحسن الرفعاء ولم يكتف بمهمة التدريس بل عكف على دراسة اللغة العربية والتعمق في معارف الحضارة الإسلامية وانتهى به الأمر إلى اعتناق الإسلام سنة 1835 وتلقب باسم "إسماعيل" بعد أن كان يدعى توماس "عربان" (Thomas Urbain)

ويتساءل الباحث عن سبب اعتناق إسماعيل للدين الإسلامي وتحوله من سان سيموني إلى مسلم، إن عوامل كثيرة تضافرت ودفعت "عربان" إلى الإسلام منها قناعته بما في الإسلام من سماحة ورفعة الأخلاق حسب طيبة قلب المجتمع المصري وحسن معاشرته. علاوة عما كانت عليه نفسه الخيرة من حب فياض للإنسانية، فكان إسلامه عن اقتناع وكانت حجته في ذلك قوله: لتوحيد الشرق والغرب لماذا لا نعتنق الإسلام[2]

اعتنق الإسلام بصدق، ويتأكد هذا من مقالاته الكثيرة والغزيرة التي نشرها عن الإسلام، ومن مواقفه المتعددة اتجاه المسلمين خاصة في الجزائر، لأن إسماعيل كان يؤمن بأن رسالة المسلم الحقيقي ألا يؤمن فقط، بل لا بد عليه أن يترجم

1 Marcel Emerit, op. cit., P 69

2 مرجع نفسه ص 72

كتب مرة في سبتمبر 1835 قائلا لقد حان الوقت أن يتقارب المسلمون والمسيحيون فيما بينهم

ذلك في أعمال تعود على المجتمع بالخير. وبالفعل عكف إسماعيل على تدريس المبادئ الإسلامية بأحد المساجد المصرية وفقا لمستوى التطور العلمي آنذاك. إلا أن إسماعيل لم ينجح في مهمته كمدرس بسبب النقص في وسائل التدريس والإمكانات المادية وحداثة عهده بالتعليم فعاد إلى فرنسا في فبراير 1836 وبعدها توجه إلى الجزائر فوصلها سنة 1837

ولسنا ندري ما إذا كان هناك هدف معين من مجيء إسماعيل إلى الجزائر بالذات، إنما المحتمل جدا أن يكون سبب ذلك ما عرفه من خلال الكتابات عن الاضطهاد الاستعماري في الجزائر[1]. ووفقا لخطة رسمها الزعيم الروحي للسان سيمونية الأب أنفانتان. إذ أن أتباع سان سيمون لما فشلوا في تحقيق أهدافهم في فرنسا وفي مصر بسبب كثرة الأمراض والمضايقة البريطانية أرادوا تجديد مساعيهم في بلاد جديدة كالجزائر. لأنهم على ما يبدو كانوا يعتقدون أن الجزائر أرض خصبة فمن السهولة بمكان أن ينجحوا في استثمار مشروعهم

ومهما يكن من أمر فمبادئ السان سيمونية رافقت الحملة الفرنسية (1830) إذ أن الكثير من الضباط الفرنسيين كانوا سان سيمونيين نذكر منهم على سبيل المثال لاموريسير (Lamoricière)[2] الذي ذهب به الأمر فيما بعد إلى

1 – كثير من الليبراليين انتقدوا فكرة الغزو والاستعمار الفرنسي، للمزيد من التوضيح ينظر مقالنا: "الاحتلال الفرنسي للجزائر وردود الفعل حوله"، سيرتا، العدد 3، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، 1980،ص — ص.90 — 103

2 تخرج لاموريسيار ليون (Lamoricière) (1806–1865) من مدرسة تقنية ثم عين ملازما في المدرسة العسكرية سنة 1830 وصار نقيبا، وفي سنة 1833 تولى قيادة فيلق

محاولة تكوين حكومة سان سيمونية في الجزائر بواسطتها يمكن أن يتحد الشرق والغرب وأن يغزو الحضارة العربية الشرق. وكذلك النقيب بيجو(Bigot) الذي قتل بعنابة سنة 1831. وبدور هؤلاء وغيرهم كبر نشاط السان سيمونية في الجزائر وكبر أكثر بوصول كل من ماصول (Massol) ولوجي (Loge) في أوت سنة 1833 إلى الجزائر. وكان أخطرهم مواسي رتوري (Moise Rertouret) اليهودي الأصل الذي وصل الجزائر سنة عام 1834 جاء خصيصا لنشر مبادئ السان سيمونية وبأمر من أنفانتان[1].

ومن السان سيمونيين الذين كان لهم دور خطير في السياسة الفرنسية في الجزائر الجنرال الدوق دومال (Duc d'Aumale)[2]. وكذلك الجنرال بادو[3](Bedeau) اللذان حكما في الشرق الجزائري. كل هؤلاء وغيرهم سواء عسكريين كانوا أم مدنيين قد لعبوا أدوارا خطيرة في السياسة الفرنسية في

رفي سنة 1835 مقدما. وفي سنة 1840 جنرالا عن عمر لا يتجاوز 34 سنة حكم مقاطعة العرب الجزائري وهو الذي كون فرق الزواف من الجزائريين

1- Marcel Emerit, op. cit, P.67

2 – كان الدوق دومال أحد أصدقاء أنفانتان والابن الرابع للويس فليب وهو الذي قضى على فرقة الزمالة للأمير عبد القادر في ماي 1843

3 - رأى بادو ضرورة استغلال الجزائر بإقامة مستعمرات يديرها عسكريون ومدنيون، يراجع

Marcel Emerit, op. cit., P. P 152 - 153

الجزائر على مختلف الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية كإقامة المشاريع العمرانية وبناء المدارس والطرق المعبدة والسكك الحديدية

وبوصول إسماعيل أوربان إلى الجزائر تكونت عائلة سان سيمونية وتقلد هو مناصب هامة إذ لم يدع فرصة تمر دون أن يستغلها فاستخدم إمكاناته للتقرب من كبار القادة الفرنسيين وعلى رأسهم الدوق دومال الـذي صـار مترجمـه خاص ابتداء من سنة 1842 ثم التحق بوزارة الحربية فاشتغل الترجمة في سلك الجيش الإفريقي.

وقد سجل لنا الرسام هوراس فرني (Horace Vernet) هذا التقـارب بـين دومال وإسماعيل في صورة جميلة توضح هيئة إسماعيل بجانـب دومـال أثنـاء هجومه على عاصمة الأمير عبد القادر المتنقلة (الزمالة)[1]

وفي سنة 1858 عين رئيسا لأول مكتب بوزارة الجزائر. ويبين هذا التعيين جدية الحكومة الفرنسية في الاستيلاء على الجزائر كلية وتكوين نظام إداري لها يجعل منها دعما اقتصاديا وسياسيا لفرنسا

وقد أولى الجنرال بيجو(Bugeaud)[1] عناية خاصة بالجزائر ليكون الاستعمار فيها رسميا بواسطة تكوين مستعمرات يديرها الجنود بأن منح بعضهم قطعا من

---

1 - نظر جريدة le Temps du 31 Janvier 1884 بعد سقوط مدينة قسنطينة تفرغ الفرنسيون أكثر للقضاء على الأمير فاستولوا على معظم المدن الخاضعة لسلطة الأمير الذي دفعه إلى أن يكون مدينة متنقلة ابتداء من سنة 1842 ضمت اثني عشرة قبيلة (12) علاوة عما انضم إليه من المتطوعين

الأرض. إلا أن النتائج جاءت عكس ما كان يخطط لـه بيجـو. ولم ينجح الاستعمار الرسمي بواسطة العسكريين لسبب جوهري ينحصر في أن العسكريين بعد أن ينهوا الخدمة العسكرية يعودون لفرنسا تاركين المستعمرات مهجـورة مما كان من الحكومة الفرنسية إلا أن لجأت إلى تجربة أخرى بأن سمحت لأكبر عدد من المهاجرين من الفرنسيين خاصة، والأوروبيين بعامة وشجعتهم علـى الذهاب إلى الجزائر للاستقرار فيها. فازداد عدد المهاجرين من 28 ألف سنة 1840 إلى أكثر من 110 ألف سنة 1848 من بينهم 52 ألف فرنسي[2].

وترتب على هذا الزحف الأوروبي على الجزائر استعمار مـدني بجانـب الاستعمار العسكري. وتدعم هذا الاستعمار بإصدار سلسـلة مـن القـوانين والمراسيم خولت للمعمرين الاستيلاء بطرق مختلفة على أجود الأراضي، منها قانون 1845 الذي صادر أملاك القبائل التي أعلنت عصيانها ضد الفرنسـيين. بجانب ما تم من استيلاء على أملاك الدولة (البايلك) (في سـبتمبر 1830) وأملاك الحبس (الأوقاف) وأملاك الأتراك الذين هاجروا من الجزائر.

وقد واجهت الحكومة الفرنسية صعوبات في كيفيـة الـتحكم في الأهـالي جزائريين وأوروبيين المختلفين في الدين والعادات والتقاليد والآمال لذا كان أمام الحكومة الفرنسية تطبيق سياسة تتماشى وعزمها على استعمار الجزائـر

---

1 - بيجو من مواليد 1784 عين حاكما على الجزائر من سنة 1840 إلى 1847 توفي سنة 1849

2 - يراجع: صلاح العقاد، المغرب العربي، ط.3 مكتب الأنجلو المصرية 1969، ص 146

كبير فهذا جاوز ينجح أن يؤسس نظاما إداريا - ويشهد له هذا بأنه صاحب منهج إداري إذ قسم الجزائر إلى ثلاث مناطق

الأولى تنحصر في المدن والمناطق المجاورة لها وأغلبية سكانها من الأوروبيين وتخضع لنفس القوانين التي يخضع لها سكان باريس

الثانية: هي التي كانت خليطا بين سكان جزائريين يخضعون لحكم عسكري وبين سكان مهاجرين يخضعون لإدارة مدنية أوروبية

الثالثة يسكنها الأهالي الجزائريون وتخضع للسلطة العسكرية عن طريق مكاتب العربية التي يرأسها جزائريون الذين كانوا يمثلون حلقة الوصل بين السكان و السلطة العسكرية.

وقد وقف الكثير من السان سيمونيين وعلى رأسهم إسماعيل "عربان" بجانب الأهالي الجزائريين ضد جشع المعمرين المدنيين. بحكم أن إسماعيل كان ضد الاضطهاد وأنه مسلم وذو إطلاع واسع فيكون بذلك قد أدرك أهم العوامل المحركة للسياسة الفرنسية ولطموحات الأهالي الجزائريين ولمطامع الأوروبيين المعمرين فأعلن موقفه صراحة ضد المعمرين وخاصة ضد المدرسة الفرنسية التي سعت وبكل جهد إلى القضاء على الشخصية الوطنية، ويتضح ذلك من مقالاته ورسائله الكثيرة وكذلك من مؤلفاته مثل "الجزائر للجزائريين" الذي نشره باسم مستعار هو جورج فوازان (Georges Voisin) ألح فيه على ضرورة تكوين الجزائريين والسماح لهم بالدراسة في مدارس

1 - صلاح العقاد، المرجع نفسه. ص.147

عربية فرنسية (Ecoles Arabe-française) ودعا أيضا إلى أن الجزائر ليست مستعمرة بل هي "مملكة عربية"[1]

ويكون "عربان" قد أوحى لنابليون الثالث بتطبيق هذه الفكرة "المملكة العربية" لاسيما بعد أن زار الجزائر سنة 1860 حيث كان إسماعيل "عربان" أحد المقربين إليه بل مترجمه الخاص. هذا بعد أن عين مستشارا مقررا في المجلس الفرنسي الأعلى سنة 1860 وقد ساعده توليه مثل هذه المراكز على أن يحظى بعناية خاصة من طرف كبار الشخصيات

والملاحظ في سياسة نابليون الثالث التناقض وقد يكون سبب هذا التناقض أنه أراد به كسب معظم الأطراف. وقد يكون لعصر في رؤيته وإن كنا نرى فيه قصر النظر إذ أنه من جهة حاول أن يحمي للأهالي حقوقهم في ضوء مشروع "المملكة العربية" وشجع الإدماج وشجع الهجرة الأوروبية وأقر بوحدة الجمركية بين الجزائر وفرنسا منذ سنة 1851 التي استفاد منها المستوطنون والرأسمال الحر. ومن جهة أخرى اعتمد على العسكريين في تسيير مخططاته ونتج عن هذه السياسة أن

1 - يعود تاريخ هذه العبارة "المملكة العربية" إلى سنة 1834 ويكون دومال هو الذي صرح بها وتبناها إسماعيل "عربان"

يرجع le Temps du Janvier 1884 ينظر كذلك

Annie-Rey Goldzeiguer, Le royaume arabe, S.N.E.D., Alger 1977

- اتسع أمر المستوطنين سياسيا واقتصاديا وكثر عددهم فبلغ سنة 1870 حوالي 295 ألف.
- استفحل شأن اليهود الساكنين في الجزائر.
- ضعفت السلطة العسكرية بمجرد انهيار الإمبراطورية الفرنسية 1871.
- اتسع الصراع بين المهاجرين الأوروبيين والمهاجرين الفرنسيين.
- ازدادت الأمراض والمجاعات في الجزائر أهمها مجاعة سنة 1868
- اتسعت حركة التبشير بقيادة لافيجري (Lavigerie)
- خيبة أمل السان سيمونيين

إذن فإسماعيل وقف من المعمرين موقفا عدائيا بأن انتقد سلوكهم وسلوك بعض الاشتراكيين الديمقراطيين الذين تخلوا عن مبادئهم، وقد وجه هذا الانتقاد في رسالة هوقني (Hegonnet)[1] حيث قال ما معناه إن انهيار الأوضاع في الجزائر يعود إلى تخلي السلطة الحاكمة عن مهمتها التي يديرها الاشتراكيون الديمقراطيون لأنهم لم يحموا العدالة الاجتماعية للأهالي ولم يدافعوا عن الحرية بل تحالفوا مع المستغلين المعمرين مما أدى إلى استفحال أمر المعمرين وزيادة سيطرتهم على السلطة وعلى الصحف المحلية

ويؤكد إسماعيل في هذه الرسالة أن الأمل ضعيف لإنقاذ الجزائر وتحسين وضعها الاجتماعي إلاّ إذا نهض الرأي العام الديمقراطي والاشتراكي في فرنسا ووضع برنامجه العام الذي يؤدي إلى إصلاح الوضعية الاجتماعية لدى الأهالي

1 – رسالة إسماعيل في تاريخ 27 أفريل 1869 تنظر جريدة La justice du 19 Janvier 1884

الجزائريين بعدها فقط يعلن الديمقراطيون الاشتراكيون الحقيقيون للمعمرين الكبار (Landlord) بأننا لا نريد أن تكون الجزائر إيرلندا الفرنسية أو بولونيا مسلمة وفي حالة ما إذا تهاون أصحاب الحرية فإن مصير الجزائر والجزائريين سيكون بيد المعمرين المدنيين، وتكون الخسارة أكبر.

ونتيجة مواقفه هذه – التي ذكرنا منها القليل – تلقى إهانات كثيرة ومواقف عدائية خاصة من طرف المعمرين الذين هاجموه أكثر من مرة في الصحف؛ منها ما جاء على سبيل المثال في صحيفتي (La justice) و (Temps) فانتقده البعض في هذه الأخيرة وعرضوا بسلوكه، ومما جاء فيها ما معناه: مثير "عربان" معلان — أخيرا — لا محتوى لها. يكفينا أن نضع بين أيدي رئيس التحرير ما حصل عليه "عربان" بمرسوم صدر يوم 22 جانفي 1852 من طرف لويس نابليون الذي سمح لـ"عربان" أن يمتلك ضيعة مساحتها 318 هكتار تعد من أخصب الأراضي ومزوده بالأشجار المثمرة والمجاري المائية[1]. ثم وصفه صاحب هذا المقال بالمتنكر وفي المقابل أشاد صاحب المقال بالمعمرين الذين قال عنهم: إنهم أشقياء ذهبوا لإحياء أرض مهملة وجرداء. ويفهم من هذا المقال تحامل المعمرين لا على "عربان" فقط بل حتى على الحكومة الفرنسية نفسها

1 - توجد هذه الضيعة بشعبة الكرم على بعد حوالي 30 كلم من قسنطينة في طريق عنابة. تراجع جريدة: La justice du 20 février 1884

وبسقوط نابليون الثالث على يد بروسيا انهارت مطامح "عربان". علاوة عما كان يعانيه من مرض عضال لهذا حصل على إجازة مرضيه سنة 1870 ثم حصل على التقاعد وتفرغ إلى الكتابة في الصحف خاصة صحيفة (le débat)

وكان "عربان" على ارتباط وثيق بكثير من الأدباء والمفكرين يساعده في ذلك إطلاعه الواسع والعميق وتشبعه بالخيال الشرقي فمن الذين كان على اتصال بهم فيدو (Feydeau) وغوتي (Z.Gouthier) وكانت له مقالات عميقة في العقيدة الإسلامية وفي سنة 1849 وتعاون مع الضيف كاريط (Carette) ألف "عربان" كتابا قيما عن الجزائر في سلسلة الكون. وفي سنة 1861 نشر كتابه السابق الذكر: الجزائر للجزائريين وفي سنة 1863 ألف كتابا عن الأهالي الجزائريين والمعمرين بعنوان (indigènes et immigrants) وقد أثار هذا الكتاب سخط المعمرين ومن بينهم النائب فارني (Warnier) والاقتصادي جيل دي فال (Jules du Val) وكتب نصا عن الجزائر في موسوعة القرن التاسع عشر

خلاصة: مما سبق يتأكد وأن للسان سيمونيين حضورا قويا في كل من مصر والجزائر. وأن لهم فكرا قويا أرادوا تحقيقه في الجزائر التي كانت الأرض الخصبة لنجاح هذا الفكر لهذا كانت مشاركتهم فاعلة منذ الأيام الأولى للاحتلال الفرنسي للجزائر. وكان للأعضاء مثل إسماعيل "عربان" تأثير كبير على السياسة الفرنسية عامة. وعلى سياسة نابليون الثالث بوجه خاص الذي حاول تأسيس المملكة العربية إلاّ انه فشل بسبب عوامل كثيرة. ويبقى إسماعيل

شخصيه متطورة تقلبت من مسيحي إلى سان سيموني وانتهت إلى مسلم لهذا فهو جدير بالدراسة التي تعني دراسة لفترة هامة من تاريخ الجزائر الحديث.

مصادر ومراجع معتمدة.

1. محمد طلعت عيسى، اتباع سان سيمون فلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها في مصر،القاهرة 1957،
2. نصوص مختارة (سان سيمون (ترجمة سعيد الغصماني ويحي علي أديب، دمشق 1975.
3. صلاح العقاد، المغرب العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط.3، 1969
4. Archives d'Outres-mer F/80,375 F80/373 1 x 1, micro N° 1 à 4
5. Bibliothèque de l'Arsenal, catalogue (w 29 12) (w 29 10)
6. Nouchi (A), Correspondance du Dr Vital avec Urbain, Alger 1958.
7. Marcel Emerit, Les Saint-Simoniens en Algérie, Paris 1941
8. Annie-Rey Goldzeiguer, Le royaume arabe, SNED Alger 1977
9. George Voisin (Urbain), L'Algérie pour les Algériens, Paris1861
10. Valet René, L'Afrique du Nord devant le Parlement au XIXe siècle, Paris 1924
11. Temps du 31 janvier 1884
12. La justice du 19 janvier 1884, et du 20 février 1884

Thomas Urbain l'un des derniers survivants de la célèbre phalange saint simonienne vient de s'éteindre à Alger, après une existence singulièrement mouvementée M Ismaïl Urbain était parti tout jeune pour l'Egypte, après la dispersion du petit cénacle de Ménilmontant Il y étudia à fond la langue et la civilisation arabe, et s'en éprit au point d'embrasser l'islamisme et d'épouser une musulmane c'est alors qu'il prit le prénom d'Ismaïl Il ouvrit même une mosquée dans laquelle il professait, la conciliation de l'Islam avec les progrès de la science moderne.

Ses prédications portèrent bientôt ombrage aux fonctionnaires qui représentaient alors la France en Egypte M Urbain dut quitter le Caire Il se rendit en Algérie où il fut admis dans le corps des interprètes militaires Il figure au côté gauche du duc d'Aumale dans le tableau d'Horace Vernet représentant la prise de la Smala d'Abd-el-Kader (1843)

Nommé plus tard au poste de conseiller au conseil supérieur du gouvernement à Alger, il prit chaudement parti en toutes circonstances pour l'élément musulman contre l'école qui tendait à sacrifier l'intérêt indigène aux idées exclusives de colonisation par l'élément européen

On a de lui de nombreuses études et brochures, notamment **De la tolérance dans l'Islamisme** (1848), **l'Algérie pour les Algériens** (1861), sous le pseudonyme de Georges Voisin Indigènes et immigrants (1863).

نشر هذا الكلام عن إسماعيل أوربان في جريدة Le temps 31 جانفي 1884

وثيقة نادرة عن المؤسسات الثقافية في مدينة قسطينة (بداية الاحتلال الفرنسي)[1]

1 نشر هذا المقال في: المجلة التاريخية المغاربية، العدد 87-88، مؤسسة التميمي للبحث العلمي و المعلومات، زغوان، تونس 1997، ص-ص، 625-637

تبادرت إلى ذهني أسئلة كثيرة وأنا أقرأ هذه الوثيقة ويمكن عرض أهمها على الشكل الآتي: ما هو الجديد من المؤسسات المذكورة في هذه الوثيقة؟ وهل يمكن معرفة عدد المؤسسات في مدينة قسنطينة قبل احتلالها؟ ما مصير بعضها غير موجود الآن؟ ما مصير خدام تلك المؤسسات وأضرحة ورفات مؤسسيها الصالحين التي كانت بها؟ أحاول الإجابة على هذه الأسئلة من خلال النقاط الآتية

1 موجز عن الحياة الاجتماعية بالشرق الجزائري وقسنطينة خاصة
2 **التعريف بالوثيقة**
3 **-- قيمتها التاريخية**
4 **نص الوثيقة**
5 **- الخلاصة**

1 - موجز عن الحياة الاجتماعية في الشرق الجزائري وفي مدينة قسنطينة

1-1- الحياة الثقافية.

استمر التواجد العثماني في الجزائر أكثر من ثلاثة قرون (1516-1830) وكذلك الوجود الفرنسي (1830 1962) وأثناء هذه الفترة تعاقبت ثقافات كثيرة فيما بينها داخل المجتمع الجزائري. مثلما عاشت وتعايشت أجناس وجنسيات متعددة وأنظمة سياسية مختلفة. وبالرغم من ذلك ظلت الثقافة العربية الإسلامية ضاربة إطنابها في المجتمع الجزائري، على خلاف المجتمعات

الأخرى في أمريكا وأستراليا مثلا التي ذابت في ثقافات غير ثقافتها على الرغم من أن الجزائر عرفت نفس "السيناريو" الذي عرفته تلك المجتمعات: غزو احتلال توسع استيطان محاولة الانفصال عن البلد الأم. والسؤال المطروح هو ما مرد ذلك؟ وهل يمكن الحديث عما إذا كان للمؤسسات العربية الإسلامية من دور في الحفاظ على مشكلات هذا المجتمع الجزائري على الرغم من ميل عدد غير قليل من الجزائريين إلى فرنسا مثلا

1 - 1 - 1 - التعليم

مدينة قسنطينة ذات قيمة عالية من الناحية الثقافية. يتزامن وجود المؤسسات الثقافية فيها مع بداية الفتح الإسلامي لها. أي بداية النصف الثاني من القرن الأول الهجري؛ بداية الربع الأخير من القرن السابع الميلادي إذ تعد المؤسسات وسيلة للاستقرار الإسلامي والدعوة له.

ولا نعتقد أننا على خطإ إن قلنا أن الثقافة في الجزائر عامة. وفي الشرق منها بوجه خاص لم تحظ بالأهمية الكبيرة من طرف العثمانيين بمثل ما حظيت به بقية القطاعات الأخرى وفي مقدمتها القطاع العسكري. وهذا تمشيا مع ظروف العصر التي كانت تتطلب الاعتماد على القوة الحربية. ولانتشار الطرقية والدروشة في البلاد العربية الإسلامية. وقد يكون لشعور العثمانيين بأنهم غرباء عن هذه البلاد. ولهذا اعتمدت الثقافة العربية الإسلامية في تطورها النسبي والعددي على ذاتيها وعلى المجتمع الإسلامي الجزائري انطلاقا من مؤسسات ثقافية المحصورة في المساجد والمدارس والزوايا الأمر الذي دفع حمدان بن عثمان خوجة إلى القول: إن طاقات فكرية كانت تكمن في أوساط

المجتمع الجزائري. لهذا اعتنوا بالعلوم والآداب فكان منهم الشعراء وأساتذة في التاريخ ومشرعون[1]. وكانت المهام العلمية والدينية في يد الحضر- (الأعيان (من الجزائريين. وذهبت إيفون توران في عرضها للحياة الثقافية التعليمية أن مدارس كثيرة كانت منتشرة في الجزائر العثمانية وكان اهتمام الجزائريين كبيرا بالمساجد والمدارس والزوايا وبالكتب والمكتبات والوقف والرحلات العلمية إلى خارج الجزائر

كانت هذه المؤسسات ثقافية بمعنى الكلمة؛ إذ بالإضافة إلى دورها العلمي والديني كان لها دور اجتماعي وسياسي في المجتمع الجزائري. فهي ذات سلطة روحية ودينية ومدنية قضائية. ولها من الولاء الشعبي ما يضاهي بل يفوق الولاء لنظام الحكم القائم فهي كانت نعمة لقيامها بدور فض النزاعات والحفاظ على التماسك الاجتماعي ونشر الأمن وإطعام المعوزين من جهة. وكانت نقمة بنشرها للشعوذة والخرافة وتشجيعها على العلوم التقليدية الشرعية

وكانت مدينة قسنطينة ثاني مدينة جزائرية بعد الجزائر العاصمة تضاهي فاس وتلمسان والقاهرة من حيث العلماء والتعليم "وكانت مساجدها وزواياها وبيوتها الكبيرة تعج بالمكتبات التي تحتوي على كتب المشارقة والأندلسيين بالإضافة إلى التآليف المحلية"[2] وقد أهلها موقعها الوسطي لإقليم

1 Hamdan (k), le miroir ,p. 73

2 أبو القاسم سعد الله، القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 2، الجزائر 1985، ص 32

الشرق الجزائري وموقعها الجغرافي الذي جعل منها بوابة من وإلى المشرق إلى مكة والمدينة المنورة. بجانب ما كانت عليه من صلة بالأوروبيين الذين كانوا يحظون بامتيازات صيد المرجان. ناهيك عما عرفته المدينة من نقلة نوعية استثنائية عهد صالح باي وتفردها بموقع متميز جعلها قبلة الأدواق الفنية والفكرية من العلماء والمعاصرين فكانت موضوع إلهام لأدباء كثيرين [1]. وقربها من تونس التي تعد قلعة العلم والعلماء.

وكانت أسر كثيرة تولت مهمة بناء المؤسسات والتدريس بها للعلوم التقليدية كالفقه واللغة والحديث والأدب والحساب. وتذكر هذه الوثيقة أهم الأسر التي قامت بهذا الدور منها أولاد ابن الشريف وأولاد نعمون وأولاد زكري وأولاد كحلة علي وأولاد سيدي مالك بالإضافة إلى الأسر المعروفة مثل ابن باديس وابن الفكون وابن جلول وابن المجاوي وابن نعمون وباش تارزي. وقد تخرج

1 - من الشعراء الذين أعجبوا بمدينة قسنطينة ووصفوها محمد الشاذلي الذي نظم قصيدة لم تذكر في مؤلف سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. وذكرت في

- Charles st Calbre, "Constantine et quelques auteurs arabes constantinois " in. R.A année, 1913, p 89

قال محمد الشاذلي

كم ردت ملوك العرب في حرمهم ... وصفت تونس من صاهل الخطل

لأهلها خلق في الحسن فائقة ... نالوا بها شرف الشيء المكتمل

كم فيها من عالم لعلمه ضربت ... من الآفاق أكباد الخيل والإبل

وكم بها من ولي عارف ظاهر ... إليه تضرع في الشدات والوجل

الكثير من العلماء من هذه المؤسسات. وكان لهم الشأن الكبير في تكوين العوامل المحركة للحياة بمختلف صورها في مدينة قسنطينة وخارجها وحتى في خارج الجزائر سواء في المغرب أم في المشرق.

1-2- الحياة الاقتصادية:

من المدن الكثيرة الهامة في إقليم الشرق الجزائري كانت مدينة عنابة وقسنطينة وكانت عنابة منطقة فلاحية وتجارية هامة مشهورة بأراضيها الخصبة وبمينائها الثاني بعد ميناء الجزائر العاصمة حيث كان أكبر الموانئ المصدرة للمواد التجارية ببايلك الشرق الجزائري وكان على رأس تلك المواد الصوف التي بلغت نهاية القرن 18 حوالي 16 ألف قنطار إذ كان ثمن القنطار 16 قرشا زيادة على ما تم من تصدير للجلود الذي بلغ خلال الفترة نفسها حوالي 550 ألف قطعة من جلود البقر. ومن الحبوب تم تصدير حوالي 100 ألف صاع. بالإضافة إلى مواد أخرى كالحديد والنحاس. وكان النظام العثماني يحتكر التجارة بهذا الميناء ويتعامل مع الشركات الأجنبية وفي مقدمتها الشركة الملكية لإفريقية الفرنسية مقابل رسوم جمركية[1] وكان لقسنطينة الدور الأساسي في العملية التجارية هذه. إذ أنها كانت همزة وصل بين عملية التصدير والاستيراد بين الصحراء والساحل.

1 -ناصر الدين، سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985، ص 214 وما بعدها للمزيد من المعلومات حول الحياة الاقتصادية يراجع محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1972

1-3- السكان بالشرق الجزائري:

من الصعوبة بمكان تحديد عدد سكان الإقليم بفعل قلة المصادر واهتمام الدارسين بالهياكل العليا كالجهاز الإداري الحاكم دون اهتمامهم بالهياكل السفلى التي كانت أساس الحياة الاجتماعية بمختلف صورها وبالرغم من قلة المصادر التي تتحدث عن سكان الإقليم التي تبدو لنا فيها مبالغة حيث ذهب بيليسيه دي القول إن عدد سكان الشرق الجزائري أواخر العهد العثماني مليون ونصف المليون [1] في حين قال حسونة الدعيس إن سكان الشرق تسع أربعة ملايين وثمان مئة ألف[2] بينما ذهب ياكونو إلى القول إن عدد سكان الجزائر كلها لا يتعدى ثلاثة ملايين[3] على خلاف حمدان خوجة الذي قال إن عدد سكان الجزائر كلها عشرة ملايين نسمة[4]. ومن خلال هذه الأرقام المذكورة وغيرها توصل الأستاذ عبد الجليل التميمي[5] ببحثه إلى نتيجة هامة وأراها مطابقة للواقع آنذاك وتقضي بأن عدد سكان الشرق الجزائري كان حوالي مليون ومئة وواحد وثلاثين ألف نسمة [6] وهو العدد الموزع على سكان الريف

1- Pellissier (R de), Annales algériennes, Paris 1854, P-P 288 289

2- Temimi (A), le beylik de Constantine et Hadj Ahmed Bey, pub. de la Revue d histoire maghrébine, Tunis 1987, P.57

3- Yacono (x),“ peut évaluer la population de l Algérie vers 1830”, in R.A année 1954. P-P 277-307

4- Hamdan (k.), Le miroir, P 320

5- Temimi, op.cit., P-P 56-57

6 – المرجع نفسه، ص.58

والمدينة، وكانت المدينة لا يسكنها أكثر من 45 ألف نسمة. وعلى رأي نوشي[1] أن عدد سكان المدينة لا يتعدى نسبة 10 % و20 % بناء على رأي أحد المعاصرين لأواخر العهد العثماني[2]. في حين ذهب سعيدوني إلى القول: "لم يتجاوز سكان المدن والحواضر (في الجزائر العاصمة) في أحسن الأحوال 6%"[3] كما ذهب بعض الدارسين إلى اعتبار نسبة 5% إلى 10%، هي نسبة سكان المدن الجزائرية كلها[4]

1 3 1 - سكان المدينة

وكانت قسنطينة عاصمة البايلك. وقد تضاربت الإحصاءات التي قدمت حول عدد سكانها فحمدان بن أمين السكة حدد سكانها ما بين 25 إلى 30 ألف[5]. في حين قال عنها كامل باي مبعوث السلطان العثماني عام 1836 إنها مدينة عظيمة بها 7000 مسكن يقطنها حوالي ألف شخص[6]. وذكر باناني أن

1- Noushi (A.). « sur le féodalisme ». in. Cahier du C.E.R.M. ed. sociale 1974 P 182

2 تقرير كامل باي إلى السلطان العثماني، جوان 1836 (نقلا عن Temimi, Le Beylik de Constantine et Hadj Ahmed Bey)

3 ناصر الدين سعيدوني، دراسات. ص.97

4 ينظر عبد اللطيف بن أشنهو، تكون التخلف في الجزائر ش.و.ن.ت الجزائر 1979، ص 40

16 Yacono (x.), " la régence d 'Alger en 1830", in. R.O.M.M. No. 2, P 274

6 - نقلا عن: - Temimi (A).op.cit., P 5

سكان مدينة قسنطينة بلغ مائة ألف نسمة[1]. في حين حدد كل من رامبار (Rambert) وباون (Bown) عدد سكان مدينة قسنطينة ما بين 40 إلى 45 ألف نسمة[2] وروزي بـ 15 ألف[3]. في حين قدرت مصلحة الهندسة العسكرية الفرنسية عدد سكان مدينة قسنطينة قبل احتلالها 40.000 نسمة وبعد الاحتلال نزل العدد إلى النصف. وأن نصف هذا العدد من العائلات والربع من الأعيان. والباقي من الأتراك والكراغلة واليهود وأن الثروة كانت بيد الأعيان والأتراك[4]. علما وأن مساحة المدينة قبل 1837 كانت 30 هكتارا حسب بعض الدارسين الفرنسيين[5]. وإننا نرجح العدد ما بين 40 إلى 45 ألف تمشيا مع مساحة المدينة ووفقا لعدد المساكن البالغ 7000 حسب ما يشير إليه

---

1 Panant., relation d'un séjour à Algertr de l'Anglais par Bianquierre. les normands, Paris 1820. P 109

2 - المرجع نفسه، ص.57

3- Rozet, Alger, 2 éd. Bouslama, Tunis 1980.P 19

4 مذكرة عن قسنطينة في تاريخ 1838/1/5 A M G H 266 وأن عدد اليهود بهذه المدينة كان 1000 حسب ما هو مذكور في A.M.G. H 46 وهو رقم غير صحيح لأن مراجع كثيرة تقول بأكثر من هذا إذ ذهب أبو القاسم سعد الله إلى أن عدد اليهود وصل في مدينة قسنطينة إلى 5000 ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1985

5- Chivé (J.). et, Bertier (A.). L'evolution urbaine de Constantine 1837 1937 Braham, Constantine 1937

تعرير كامل باي وبناء على متوسط عدد الأفراد من 6 في الأسرة الواحدة وبالتالي في المسكن الواحد

2 - التعريف بالوثيقة.

عثرنا على هذه الوثيقة أثناء قراءتنا لمذكرات ديفو(Desvaux) المحفوظة في مكتبة متحف أنفاليد (Les invalides) بباريس. وتتكون من خمس صفحات من الحجم المتوسط مكتوبة بخط مغربي. هذه الصفحات لم تكن ملصقة في أحد الأجزاء من مذكرات ديفو المكتوبة بالفرنسية [1] تناولت هذه الوثيقة عدد المؤسسات الثقافية، من مساجد وزوايا كانت في مدينة قسنطينة وخارجها التي تحول عدد منها إلى خدمات لصالح السلطة الفرنسية. بالإضافة إلى قائمة بأسماء من يحق لهم التدريس بهذه المؤسسات ومن غير المستبعد أن يكون كاتب هذه

---

1 مذكرات ديفو ذات قيمة تاريخية عالية تتكون من 21 جزءا كتبها خلال نصف قرن (1831 1884) بين الأجزاء من 4 إلى 8 نشاطه في الجزائر حيث كان له دور هام في السياسة الفرنسية في الجزائر إذ تولى منصب قائد منها منصب الحاكم نيابته (1852-1855) ومنصب الحاكم مدينة قسنطينة (1859 1864) ثم منصب قائد الأركان ونائب الحاكم العام في الجزائر منذ عام 1865 وكان من الذين أولوا عناية خاصة باستثمار المناجم والغابات في القبائل وكان من أنصار تطبيق سياسة التعليم الفرنسي العربي. وكان يجيد اللغة العربية ولغات أخرى. سافر إلى بلاد كثيرة منها. مصر وإيطاليا واليونان وتركيا وأوروبا الوسطى للمزيد من المعلومات، يراجع

- Marcel (E.)," une source pour l histoire du second empire: les souvenirs du généra. Desvaux " IN, Revue d Histoire moderne et contemporaine, t 2, jan-mars,1974, Armand colin, Paris 1974, P-P 27-32
- Peyronnet (R), Livre d Or des Officiers des affaires indigènes, t.2. Alger 1930. P 144

الوثيقة ليس جزائريا وهذا لعدم كتابة أسماء المؤسسات بالحرف الصحيح وذكر أسماء غير عربية مثل. "بلاصة" و"مادام". وبالمقارنة مع وثائق أخرى تكون الوثيقة كتبت بعد احتلال مدينة قسنطينة بسنوات

3 قيمتها التاريخية:

هذه الوثيقة قيمة تاريخية، خاصة فيما يتعلق بالمؤسسات الثقافية التي عرفتها مدينة قسنطينة وخارجها. كما وتعرفنا بمصير بعضها الذي تحول إلى ملكيات فرنسية كما أمدتنا هذه الوثيقة بأسماء العلماء الذين كان يحق لهم التدريس في هذه المؤسسات وتذكر هذه الوثيقة أن عدد المؤسسات الثقافية في مدينة قسنطينة كان 80 مؤسسة منها 19 كان قد استولى عليها الفرنسيون واستخدموها لصالح الاحتلال سواء لإيواء الجنود مثلما حدث لسيدي الذيب وسيدي علي بن مخلوف وزاوية ضباط دار الباي أم للمؤونة في جامع رحبة الصوف أم للسكن الخاص مثلما حصل لسيدي الرواعي بالقصبة الذي سكنته السيدة زاقو أم سيدي المدلسي الذي سكنته السيدة مور أم لتأسيس الساحات العامة مثلما وقع لسيدي مسلم وسيدي فرعان وسيدي الوراد وزاوية باب الواد

كما عرفنا هذه الوثيقة كذلك على ملكية بعض الأسر لمؤسسات ثقافية مثلما هو الحال لدى أسرة كل من: أولاد بن جلول التي كانت بيدها زاوية السواري والخراشفين وأولاد سيدي مالك بحوزتها سيدي عبد المؤمن وسيدي هجام بكل من أولاد ابن زكري وأولاد كجك علي وسيدي قموش وسيدي بوشداد لأولاد ابن باديس وسيدي بوعبد الله الشريف لأولاد ابن الشريف

وزاوية الخرازين لأولاد الفكون وزاوية نعمان في يد ولد نعمان ومن جهة أخرى تؤكد هذه الوثيقة أيضا أن مؤسسات ثقافية كانت خارج قسنطينة بلغت 20 ففي فرجيوة كانت 4 جوامع (حوالي 85 كلم عن قسنطينة) وبالعلمة 2 (80 كلم عن قسنطينة) و1 في كل من الرواشد (حوالي 70 كلم عن قسنطينة) وبومرزوق (5 كلم عن قسنطينة) وأولاد سلام (حوالي 50 كلم عن قسنطينة) والحرية (حوالي 25 كلم عن قسنطينة) وأولاد رحمون (حوالي 30 كلم عن قسنطينة) وهناك قائمة بأسماء من لهم القدرة على التدريس وعددهم 17 ومنهم القاضيان والمفتيان والطيب بن الكبرد ومحمد بن عزوز والشيخ الشاذلي

أما ذكر الشيخ الشاذلي فإن المقصود به هو محمد بن عيسى الشاذلي (1797-1877) المشهور بالشاذلي القسنطيني[1] الذي هو من قبيلة البواريد غادر قسنطينة بعد احتلالها ثم عاد إليها عام 1844 حيث عين قاضيا عليها وتولى ابنه محمود منصب القضاء في مدينة سطيف وفقا للسياسة الفرنسية التي شرع في تطبيقها ما بين سنتي 1848 إلى 1858 ووظفت على إدارة المساجد المدرسين والأئمة والمؤذنين والوكلاء والحراس وقراء القرآن.

1 يراجع أبو القاسم سعد الله، القاضي الأديب الشاذلي، المرجع السابق

ومن المؤسسات الجديدة التي تضيفها هذه الوثيقة ولم تذكرها أهم المراجع[1] هي 19 مؤسسة وتبدأ كلها بلقب سيدي باستثناء زاوية السواري وهي: سيدي البرزي ومسلم والمنسي والرواعي ومليّوا والوارد وقشيش وبنوص وحيدان وشقفة وبنعمون وكرامة وابن عبد الناس[2] ومحمد الزواوي وفرعمان والهجام والخراشفيين والخرازين وبالإضافة إلى 20 مؤسسة كانت متواجدة خارج مدينة قسنطينة وبفرجيوة وعددها 4 ولم تذكر أسماؤها وكذلك 22 بالعلمة وغيرها مثلما ذكرنا. ولا يعني هذا أن الوثيقة ذكرت كل المؤسسات بل أن مؤسسات أخرى لم تذكرها وذكرتها مراجع أخرى وبلغت 15 وهي: جامع حسين باي وسيدي معرف وسيدي عليسة وسيدي بركات العروسي وسيدي بوقصيعة وسيدي الهواري (ذكر في الوثيقة بالحواري) (الغسيل وعبد القادر وفرقان وزاوية باش تارزي وجبة البشير وسيق فريخة سيدي سليمان وسيدي محمد الغراب وسيدي مسيد[3] بناء على هذا تكون المؤسسات الثقافية

1 - محمد المهدي بن علي شغيب، أم الحواضر في الماضي والحاضر، تاريخ قسنطينة، البعث، قسنطينة، الجزائر 1980، ص.479. اعتمدنا هذا المرجع أساسا نظرا لما يتضمنه من معلومات هامة، ولما عليه مؤلفه من دراية عميقة بالمؤسسات الثقافية لهذه المدينة. بحكم أنه من أبنائها القدماء ومن طلاب هذه المؤسسات

2 - وهو المذكور في كتاب أم الحواضر، ص.250، بسيدي عباس، وهو الأمر الذي يرجع خطأ نقله، من طرف محمد المهدي. لأن صاحب هذا الكتاب ترجم الاسم من اللغة الفرنسية

3. Charles St-Calbre "Constantine et quelques auteurs arabes constantinois" in R.A année 1913, P 89

التي عرفتها مدينة قسنطينة حوالي 94 (15+12+67) قبل مجيء الفرنسيين. بإضافة الـ20 مؤسسة خارج مدينة قسنطينة والمذكورة في الوثيقة يعني هذا أن مجموع المؤسسات بها لا يقل على 114 لهذا الرقم أكثر من دلالة خاصة إذا علمنا من خلال ما تذكره بعض المراجع أن مساحة المدينة كانت حوالي 30 هكتار، وأن عدد السكان كان ما بين الـ 40 و45 ألف نسمة مثلما مر بنا. يعني هذا أن لكل 400 فرد مؤسسة ثقافية.

لقد اندثر الكثير من تلك المؤسسات بفعل عوامل كثيرة كان على رأسها السياسة الفرنسية التي أقامت مشاريع عمرانية على أنقاضها ونذكر من تلك مؤسسات زاوية التلمساني التي حولت مقرا للهندسة العسكرية ثم إلى مركز تبشيري للراهبات وبدءا من عام 1880 صار بحورة اليهود. وسيدي بومعزة الذي كان يلقي فيه الشيخ ابن باديس دروسا قبل تأسيس جمعية التربية والتعليم وحول الآن إلى مدرسة أساسية هي مدرسة زغدود التي ألحق بها جامع سيدي قيس وتسمى زاوية العمارية. من المؤسسات المندثرة أيضا عمر الوزان كانت مكان المسرح البلدي الآن وجامع سيدي عبد الرحمن المناطقي الذي حولته السلطة الفرنسية إلى بنايات سكنية. وسيدي الذيب الذي بني على أرضه البريد المركزي بالمدينة بالإضافة إلى جامع رحبة الصوف وابن عيسى الناس وعلي الصحبي وبوشداد والهوري وعلي العفصي وإبراهيم الراشدي ومعسرح والقاس وبركات العروسي وبوقصيعة والجليس والصفار وخيل ونحل والحوره وسيدي عريفة وفرقان عبد القادر وقبة البشير وزاوية ابن رضوان هذه الأخيرة كانت مقر المحكمة الإباضية وهي الآن بيد الإباضيين الجزائريين

والسؤال المطروح هو: ما مصير عمال وأضرحة هذه المؤسسات؟ تعاملت السلطة الفرنسية مع هذه المؤسسات بطرق أهمها:

-استبقاء بعضها وتعيين موظفين لها مقابل رواتب.

- بيع البعض منها بعد نقل رفات الأضرحة منها إلى المقبرة الإسلامية مثلما حدث بزاوية ابن رضوان التي كان بها تابوت قاضي باب الوادي محمد بن رضوان المتوفى عام 1792 وبقرار بلدي حولت إلى محكمة إباضية أو حولت من مؤسسة إلى أخرى. مثلما حدث لرفات سيدي علي بن مخلوف الذي نقل إلى الجامع الأربعين شريفا

- هدم الباقي وإقامة المشاريع العمرانية حيث قسمت المدينة بدءا من عام 1844 إلى حيين الأول خاص بالجزائريين والثاني بالأوروبيين واليهود وكان أول حي هو المعروف بسان جون. شرع في بناء مقر الولاية عام 1849. وتأسست أول مدرسة عربية – فرنسية عام 1850. ثم شرع في مد جسر القنطرة وفي بناء المسرح. ومد السكة الحديدية من قسنطينة إلى سكيكدة فتطور العمران بسرعة. وبمرور قرن وصل عدد سكان المدينة 114.000 نسمة على مساحة 239 هكتار (185 هكتار للأوروبيين 42 هكتار للجزائريين 12 هكتار لليهود وبلغ عدد العمارات بالمدينة 4000 بجانب 80 كلم من الشوارع المعبدة.

4 – نص الوثيقة

الصفحة الأولى

الحمد لله

بيان الجوامع الذي بيد المرابطين أول ذلك

1- سيد الباروري.

2- جامع الجورة.

3- سيد بوعبدة (هو زاوية عيساوة)

4 سيد السعال

5 سيد مسلم، بلاصة (ساحة (une place))

6 - سيد فرعاك، بلاصة

7 جامع رحبة الصوف، فيه الزرع

8 سيد علي بن مخلوف، فيه السرسور (حمد)

9 سيد عبد الهادي، سجن (هو سجن المدينة الآن

10 سيد راشد، مقفول (مغلق).

11 سيد يحي المصيلي، خراب.

12 سيد المغلسي في يد مدام مور.

13 سيد الروعي في القصبة، في يد مدام راغوا

14 جامع القصبة، خرب

15 سيد قُبّو الكبير، خرب

16 زاوية صبغة (كذا) دار الدي، في يد الجيني

1 ما هو مكتوب بين قوسين غير وارد في نص الوثيقة

(الهندسة العسكرية(génie)

17 - زاوية (كذا) باب الوادي، بلاصة

18 سيد الذيب في يد البوليطة متاع السرسور (ضابط الجند)

19 سيد الوراد، بلاصة

الصفحة الثانية

الحمد لله الجوامع الذي هما ملك الناس أول ذلك

جامع الأخضر – سيد إبراهيم الراشدي- سيد الكتاني – سيد بومعزة- الجامع الكبير- الأربعون شريفا(نقل إليه رفات سيد علي بن مخلوف)[1]- سيد عبد الرحمن الثعالبي (المنطقي)- سيد الرماح- سيد علي القمصي – سيد خميس- زاوية (كذا) السمعاني – سيد فتح الله- زاوية الصفار – سيد عبد مثت سيد قنيش سيد كرامة- سيد يونس – سيد عليّوا- سيد محمد بن ميمون(مدفون بها محمد ميموني) – سيد محمد النجار- سيد محمد الشريف – سيد عمي الطبجي- سيد الشاذلي – مسجد حفصة- زاوية رضوان – سيد بوعبدة زاوية حصانة (هي زاوية الحاريين) – سيد بوراعدة- سيد قيس – سيد عمر الوراب- سيد حمدان – سيد بن عيس الناس- سيد شقمة – العربية متاع سيد علي بن مخلوف سيد تمديل العرابة متاع رحبة الصوف سيد

1 – ما بين قوسين غير وارد في نص الوثيقة

عبد الرحمن العروي - دار الحنصي المدينة- جامع خليل - سيد العوال- سيد ياسمين - سيد معرج- سيد العاشر - المدرسة متاع جامع الأخضر- سيد الحواري - سيد عمار المدرسة متاع سيدي الكتاني - سيد ميمون- سيد الدرار

جامع الاخضر
سيد الكتاني
الجامع الكبير
سيد عبد الرحمن [illegible]
سيد [illegible]
راوية التليمساني
سيد الصفار
سيد [illegible]
سيد [illegible]
سيد [illegible]
سيد محمد [illegible]
سيد الشاذلي
راوية رضوان
راوية [illegible]
سيد [illegible]
سيد حمداني
سيد [illegible]
سيد محمد بكر
سيد عبد الرحمن العروي
جامع خليل
سيد ياسمين
سيد العاشر
سيد الحواري
المدرسة متاع سيد الكتاني

سيد ابراهيم الراشدي
سيد بو معزة
[illegible]
سيد [illegible]
سيد [illegible]
سيد [illegible]
سيد [illegible]
سيد محمد [illegible]
سيد كرامة
سيد [illegible]
سيد عمر النجار
سيد علي [illegible]
[illegible]
سيد [illegible]
سيد [illegible]
سيد [illegible]
سيد بن عيسى [illegible]
المدرسة متاع سيد علي [illegible]
المدرسة متاع [illegible]
دار [illegible]
سيد العوال
سيد معرج
المدرسة متاع الجامع الاخضر
سيد عمار
سيد الدرار

الصفحة الثالثة

الحمد لله بيان الجوامع الذي هما ملك الناس أول ذلك

1 راويت السواري لأولاد بن حلول
2. راويت اخراشفين كذلك
3 سيد عبد المومن لأولاد سيدي مالك.
4 سيد هجام لأولاد بن زكري وأولاد بن كحلك علي.
5. سيد قموش لأولاد بن باديس
6 سيد أبوعبد الله الشريف لأولاد بن الشريف.
7. سيد بوشداد لأولاد بن باديس
8 راويت اخرابين لأولاد العقون
9 سيد محمد ازواو
10. راويت بن نعمون
11 راويت بن عبد الرحمن
12. راويت نعمان في يد ولد نعمان

[illegible] بيان الجوامع [illegible] اول ذلك
راوية السواري لاولاد بن حلول
راوية [illegible] كذلك
سيد عبد المومن لاولاد سيدي مالك
سيد هجام لاولاد بن زكري واولاد بن كحلك علي
سيد قموش لاولاد بن باديس
سيد ابو عبد الله الشريف لاولاد بن الشريف
سيد بوشداد لاولاد بن باديس
راوية [illegible] لاولاد العقون
سيد محمد ازواو
راوية بن نعمون
راوية بن عبد الرحمن
راوية نعمان في يد ولد نعمان

الصفحة الرابعة

الحمد لله بيان الجوامع الذي هما مدت الناس أول ذلك

1- جامع الرواشد وبولايد 1
2- جوامع فرجيوة 4
3- سيد سعدون 1
4 سيد علي العريان 1
5 جوامع العلمة 2
6 جامع المعلّسة 1
7- جامع المرابط محمد في بومرزوق 1
8- جامع أولاد سلام متاع بكيكبه 1
9 جامع مصاح في المرية 1
10- جامع الحماسي (الجباسي؟) 1
11 جامع سيد معمر 1
12 سيد المبروك 1
13- جامع أولاد بن وادفل
عند أولاد رحمون 1
14- المجذوب 1
15- جامع بن بعريش 1
16- سيد أحمد الزرزوي 1

الصفحة الخامسة

الحمد لله بيان الطلبة الذين يقدرون على التدريس أول ذلك

2 القاصيان
1 الشيخ الشادلي
2 المسيان
1 عبد الهادي
1 الطيب بن الكبود
1 علي الوحيشي
1 محمد بن عرور
1 أحمد بوقرنة
1- المصري
1- الشريف بن شريط
1- إبراهيم بن البشات في الحج — في الحج
1- محمد الصغير بن سلطان في الحج — في الحج
1- سليمان بن صردو
1- العربي الشعاب
1- محمد بن يحيا

١٧

5 – الخلاصة مما تقدم نخلص إلى القول إن قسنطينة كانت أواخر العهد العثماني زاخرة بمؤسسات ثقافية بلغت 114 مؤسسة وقدرت مساحة المدينة بـ 35 هكتارا وكذلك مجموع السكان بها على الراجح – كان ما بين 40 إلى 45 ألف نسمة وقد بينت هذه الوثيقة النادرة أن أسرا كثيرة كانت بيدها مؤسسات ثقافية مثلما أضافت أسماء مؤسسات جديدة لم تذكرها مراجع أخرى في حين تغافلت عن ذكر البعض الآخر. وأكدت لنا مصير بعض المؤسسات التي حولت لصالح الاحتلال الفرنسي. وأسماء بعض المدرسين بهذه المدينة

6 ومصادر مراجع معتمدة

1. أبو العباس، بن قنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق الشاذلي النيفر، وعبد الحميد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس 1968.
2. أبو العباس تقي الدين، أحمد بن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، دمشق 1966
3. أبو محمد بن علي بن أحمد بن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج. 4، القاهرة 1899.
4. أبو دينار، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق محمد الشمام، المكتبة العتيقة، تونس 1961
5 أبو عبد الله، محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ج 1، دار صادر، بيروت 1957

6 أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1985
7 -، القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط.2 الجزائر 1985
8 -، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، المنظمة العربية للتربية والثقافة، القاهرة 1976
9 أحمد صادق سعد، تحول التكوين المصري من النمط الآسيوي إلى النمط الرأسمالي، ط 1، دار الحداثة، بيروت 1981
10. أحمد باي، مذكرات أحمد باي، ترجمة محمد العربي، الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1973
11 إسماعيل، الكيلاني، فصل الدين عن الدولة، ط 2، المكتب الإسلامي، بيروت، 1987
12 إسماعيل سمر، وعارف دليلة، تاريخ الأفكار الاقتصادية، ط 1، منشورات جامعة حلب، سوريا 1977
13 صالح، العنتري، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة، تحقيق يحي بوعزيز، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1991.
14 جميلة، معاشي، الأسر المحلية الحاكمة ببايلك الشرق، أطروحة ماجستير، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة،الجزائر 1981.
15 خليل، أحمد خليل، العرب والقيادة، ط 1، دار الحداثة، بيروت 1981.

16 روز، نتال، وبوديس (ب)، الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كـــرم، ط. 5، دار الطليعة، بيروت 1985

17. حسين مصحم، النظرية العامة للدولة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائـــر 1977

18 الحسين، بن محمد الورتيلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق ونشر محمد بن أبي شنب، مطبعة بيير فونتانا، الجزائر 1908.

19 عبد اللطيف، بن اشنهو، تكون التخلف في الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1979

20. سعدي، الهواري، الاستعمار الفرنسي للجزائر، ترجمة عبد الله جوزيـــف، ط. 1، دار الحداثة، بيروت 1983.

21 عبد القادر، جغلول، تاريخ الجزائر الحديث، ترجمة فيصل عبـــاس، ط. 2، دار الحداثة، بيروت 1982

22 ـعبدين، شلوصر، قسنطينة أيام الحاج أحمد بـــاي، المؤسســـة الوطنيـــة للكتاب، الجزائر 1980.

23. ـكلود، رافستان، "عناصر لنظرية في الحدود"، ديوجين، العدد 78، مركز مطبوعات اليونيسكو، القاهرة 1988

24. ـمبارك الميلي، تاريخ الجزائر القديم والحديث، ج، 3، مكتبـــة النهضـــة الجزائرية، الجزائر 1964

25. ـمحمد المهدي،بن علي شغيب، أم الحواضر في الماضي والحاضـــر، تاريخ قسنطينة، البعث، قسنطينة، الجزائر.1980

26. ـمحمد عابد، الجابري، وجهة نظر في إعادة بناء قضـــايا الفكـــر العـــربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت1992.

27 - محمد العربي،الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1972

28. ـناصر الدين، سعيدوني، دراسات وأبحاث في تـــاريخ الجزائـــر، العهـــد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر1985

29. - "، النظام المالي في الجزائر (1800 - 1830)

30. "، وضعية عشائر المخزن الاجتماعية والآثار التي ترتبت عليهـــا "، المجلـــة التاريخية المغربية، عدد 7، 8، تونس 1977، ص-ص. 69 - 77.

31 - Archive du ministère de la guerre, H226.

32. - , H 46.

33 - Archives d 'Outr - Mer, F80 / 549

34. - mémoires de Desvaux, M 737ý, Bib des invalides, Paris

35 - Ali) B H), souvenir d un voyage d'Alger à Constantine, tr de Saulcy, Paris 1836.

36. - Abd El ghani) M.), la paysannerie algérienne face à la colonisation, S N E.D. Algérie, 1973

37 - Ahmed (N), "les ordres religieux et la conquête française" in Revue algérienne des sciences juridiques économiques et politiques, vol. 1, no. 4, Algérie 1972

38 - André) H.), institutions politiques et droit constitutionne, Paris 1972.

39. - Bache) E.L), " de la propriété arabe en Algérie avant 1830 " in Revue algérienne et coloniale, t. 3, 1860.

40. - Chivé (J), et, Bertier (A), L'évolution urbaine de Constantine 1837-1937, Braham, Constantine, 1937

57 Gallissot (R.), " féodalité et mode de production féodal de la France au Maghreb précolonial " in sur le féodalisme. C.E.R.M. Paris 1971
58 - Larcher,) E., traité élémentaire de législation algérienne. 3e édi Arthur (R.), Paris 1923
59 Laïa (B.), mythe d origine et structures tribales dans le Constantinois sous la domination turque, thèse de 3 e cycle, Aix France, 1984
60. , tribus, structure sociale et pouvoir politique de Constantine sous les Turques, D E A fac.des droit. et des Csces po Aix, France, 1981
61 Ministère de la guerre, tableau de la situation de établissement français, années,1840, 1845
62 - Marx, et, Englis, sur les sociétés précapitalistes, éd sociale, 1878
63 - Marcel (E.), " une source pour l histoire du second empire les souvenirs du général Desvaux ", Revue d'histoire moderne et contemporaine, t. 21, jan- mars,1974, Armand colin, Paris 1974
64. - , " la situation économique de la régence d'Alger en 1830 ", in Information historique, nov -dec 1952.
65 Noushi) A), enquête sur le niveau de vie des populations rurales constantinoises de la conquête jusqu'à 1919, Paris 1961
66. - , » sur le féodalisme », cahier du C.E.R.M éd. sociale, 1974
67 - , " réflexions critiques sur le dossier: précolonial. l'Algérie précoloniale" in sur le féodalisme, C E R.M. Paris 1971
68 - Prenant) a.), l Algérie passé et présent, éd sociale, Paris 1960
69 - Payssonne,- Pellissier) R.de), annales algériennes. Paris 854
70. - Peyronnet (R.), livre d or des officiers des affaires indigènes, t 2, Alger, 1930
71 - Pananti, relation d un séjour a Alger, tr de l Anglais par Blanquierre, le normands, Paris 1820
72. - Pouyanne) M), la propriété foncière, Jourdan Paris 1900

41 - Charles St-Calbre, " Constantine et quelques auteurs arabes constantinois ", in R.A. année 1913 p-p. 70-95
42 Dahmani) B) les origines du sous développement en Algérie. thèse de 3 e cycle, inst. des csces. Sociales, uni d'Oran, Algérie 1981
43 Dardour (H), Annaba 25 siècle de vie quotidienne et de lutte. S N E D Algérie, 1982
44 - Devoulx) A), notice sur les corporations religieuses d Alger, 1912
45 Esquer) G), correspondance de Duc de Rovigo, t 2 Alger 1920
46 Essyautier le statut réel français en Algérie au législation jurisprudence sur la propriété foncière depuis 1830 à la loi du 28 avril 1887, Alger, 1887
47 - Esterchazy) W), domination turque dans l ancienne régence d'Alger, Goussl n, Paris 1840
48 Fillias) A), notice sur les produits maritimes du littoral algérien, Corsah, Alger, 1878
49 - Féraud (ch), "ferdjioua et zouar a " in.R.A année 1878. p - p 5 - 25
50 - , " les Hrar, seigneurs des Hanancha ", in R A. année 1874
51 - , le Sahara de Constantine
52 , notice historique sur Ouled Abd ennour, Armolet, Constantine. 1864
53. , " Notice sur Tebessa ", in. R A. année 1874
54 - Gouvion) m). et, Edouard, Kitab Ayan El magharibа. Alger, 1920
55 - Hamdan (k), le miroir, tr par: H D Goetshy, Paris 18
56. - Julien) CH A.) Hist. de l'Algérie contemporaine, P U F. Paris 1964

73 Perrot, Alger esquisse topographique et historique du royaume et de la ville d'Alger, Paris 1830.
74 - Rozet, Alger, 2 éd. Bouslama, Tunis, 1980.
75 - Robe (E.), les lois de la propriété foncière en Algérie, Algérie, 1891.
76 - Raynal) l'Abbé), Hist. philosophique et politiques des établissements et du commerce des européens en Afrique septentrional, Maurus et Cie, Paris 1826
77 - Rinn) L.), marabouts et khouans, Jourdan, Alger, 1884
78 " "le royaume d'Alger sous le dernier bey ", in R. A. année 1897
79 - Remont) M), " l'élargissement des droits politiques des indigènes ", in. R.A. année 1927, p-p, 213 -253
80 - Serres) J), la politique turque en Afrique du nord sous la monarchie de juillet, Paris 1925
81 - Temimi (A.), le beylik de Constantine et Hadj Ahmed Bey, pub de la revue
82. d'histoire maghrébine, Tunis 1987
83 - Urbain) T), " notice sur l ancienne province du Titteri " in R.A. année 1843
84 - Valensi) L), le Maghreb avant la prise d Alger 1790 - 1830, Flamarion, Paris 1969.
85 vayssette (E.), " hist. des derniers beys de Constantine depuis 1793 jusqu'à la chute de hadj Ahmed " in. R. A année 1858
86 - Warnier, et, Carette, description et division de l'Algérie, Hachette, Paris 1847
87 - Yacono (x)," peut- évaluer la population de l Algérie vers 1830", in. R.A. année 1954.
88 - , " la régence d Alger en 1830", in R.O.M.M no. 2,

الأمير عبد القادر رائد الحركة الوطنية وبطل «المقاومة» المسلحة[1]

1 - نشر هذا المقال في جريدة النصر الوطنية للشرق الجزائري يومي 16، 17 جوان 1982. وكانت طبيعة النشر في هذه الصحيفة لا تعتمد على كتابة المصادر والمراجع على الرغم ما للموضوع من مادة مصدرية متعددة

بمجرد أن تمكنت الحملة الفرنسية من تحقيق هدفها باستيلائها على العاصمة 1830 وجهت السلطة الفرنسية حملتين واحدة إلى الشرق وأخرى إلى الغرب قصد المزيد من السيطرة، وهذا ما يؤكد نية فرنسا من أنها جاءت لاحتلال الجزائر واستعمارها. وعلى الأقل لاحتلال الساحل كله.

وتمكن الجنرال بوابي (Boyer) في أوت 1831 من احتلال مدينة وهران دون كبير جهد وذلك لموقف باي وهران الذي سلم مفاتيح المدينة إلى القوة الفرنسية مقابل أن يحصل على الأمان، ومن ثمة عين الجنرال بوابي حاكما على وهران، وهذا ما دفع بعض الفرنسيين إلى وصف هذه الحملة بالجولة العسكرية لعدم وجود مقاومة. ونفس الشيء الذي قام به باي التيطري مصطفى الذي أعلن ولاءه للفرنسيين دون أن تصل فرنسا إلى هذه المنطقة.

ويتساءل الدارس عن عدم وجود «مقاومة» خاصة من طرف باي وهران. نحن نبحث في رأيي يعود إلى أن الباي حسن قد تقدم به السن وتقلصت آماله ولاعتقاده بأن قوة فرنسا لا تقهر خاصة لما تغلبت على قوات الداي حسين التي تعد أكبر قوة في الجزائر آنذاك. وأيضا وضعه كان مهتزا، و لم يكن له سند من أوساط السكان نتيجة للسياسة التي اتبعها النظام العثماني مع المواطنين، ويكفي أن نذكر مثالا على ذلك: أنه في سنة 1823 توصل بحسن باي وهران أن وضع الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر تحت الرقابة خوفا من أن يقوى عضده فيهدد النظام العثماني في هذه المنطقة، ومن ذلك التاريخ ساءت العلاقة أكثر بين أسرة محي الدين والنظام القائم. وتأكد ذلك أكثر لما طلب هذا الباي حماية من أسرة محي الدين من الفرنسيين إلا أن هذا الأخير رفض.

لعل هذه العوامل هي التي جعلت حسن باي عن المقاومة، ودفعته لتسليم المدينة إلى الفرنسيين. ومهما يكن من أمر فإننا نعتبر ذلك ضعفا من الباي خاصة من الناحية "الوطنية" لاسيما وأنه لا تربطه بهذا البلد جذور عرقية خلاف أحمد باي الذي أبدى «مقاومة» "وطنية" إلى آخر نفس من حياته.

وبانهيار النظام العثماني في البلاد حدث فراغ إداري كان على فرنسا أو على أية قوة أخرى أن تملأه، ولهذا ذهب الاعتقاد بالحكومة الفرنسية أنه من السهولة بمكان أن تستولي على بقية المناطق الأخرى دون بذل جهد مادي ومن دون خسائر بشرية وفي أقصر مدة زمنية، ونلمس ذلك في اهتمامات السلطة الفرنسية بهذه المنطقة، وفي توسيع دائرة نشاطاتها، منها أنها اتصلت بسلطان المغرب في أفريل 1832 قصد إقناعه بالتخلي عن مدينة تلمسان التي احتلها بعد سقوط النظام العثماني ومن المؤكد أن هدف فرنسا كان رغبتها في التوسع غربا لازدهار تجارتها في أرزيو ومستغانم علاوة على أنها لا يمكن أن تبقى بأمان في العاصمة ومنطقة الغرب بيد الأمير الذي يهددها باستمرار.

وصادف أن كان وفد جزائري يتكون من 10 أفراد بعثه محي الدين إلى سلطان المغرب قصد الحصول على مساعدات لمحاربة الفرنسيين فأحسن السلطان استقبال الطرفين الجزائري والفرنسي وتمكن من إرضائهما بأن أمر خليفته بلحمري أن يوقف جميع حروبه ضد الفرنسيين وأن ينسحب من تلمسان وفي الوقت نفسه ترك أمر مدينة تلمسان إلى محي الدين

ولا ندري هدف السلطان من هذا الموقف أيكون ذلك بكسب الطرفين؟ أم كان لغرض أن يدخل الطرفان في حروب طاحنة فيسهل عليه فيما بعد التحكم

في زمام الأمور بعد أن يضعفا. أم أن ذلك كان سياسة منه لأن الظروف لم تصبح بعد فتطلب الأمر منه التزام الحذر الذي يتوافق مع طموحاته.

قد ذهب الاعتقاد بالحكومة الفرنسية إلى أنه من السهل أن تتوسع في الغرب دون عناء، إلا أن شيئا كهذا لم يحدث حيث قام الأهالي في هذه الأوطان بقيادة شيوخهم وعلى رأسهم محي الدين والد عبد القادر بهجمات عنيفة ومتعددة استمرت من يوم 3 إلى 8 ماي 1832 بقوات قدرت ما بين 3000 و4000 مجاهد، وقد أحدثت هذه الهجمات دويا في الداخل والخارج من ذلك أنها ظهرت على صفحات الصحف منها صحيفة مونيتور الجزائر أو (Moniteur algérien) في تاريخ 29 ماي 1832 وكانت هذه الهجمات بدافع الدين والشرف والوطن ضد "كفار"، وتحت هذا الوازع وفدت على محي الدين عدة قبائل طالبة منه المزيد من الهجمات على الفرنسيين إلا أن هذا الأخير تقدم به السن وأدرك يقينا أنه لا يستطيع تلبية الرأي العام الداعي إلى تولي الإمارة ففضل أن يكون ابنه فكانت المبايعة له التي تعني البداية لتأسيس دولة جزائرية فتية كتب لها أن تقاوم مدة سنوات على الرغم من الصعاب التي سنتحدث عنها.

وعين دي ميشال حاكما على وهران خلفا لبوايي بمرسوم ملكي يوم 28 فيفري 1833 جاء هذا التعيين لإقرار السلام في الغرب ونتيجة لاشتداد «مقاومة» الأمير في هذا الوقت أرسلت الحكومة الفرنسية اللجنة الإفريقية قصد التحقيق بل قل قصد إقرار شكل النظام الذي يخدم مصالحها وتتعرف جيدا على إمكانات الجزائر ومسكات الرأي المعارض لاستعمار الجزائر، إذ

فاللجنة الإفريقية جاءت إلى الجزائر لذر الرماد في العيون لأن من نتائجها إجماعها على أن تكون الجزائر امتدادا طبيعيا لفرنسا منذ 1834. ومن ثمة دخلت القضية الجزائرية مرحلتها الحاسمة فتعين حاكم عام على الجزائر بدل القائد العام يوم 22 جويلية 1834 والحاكم هو دورلان (Drouet D'Erlon)

ومن جهة أخرى كان لهجمات الأمير الأثر الواسع على الداخل والخارج، فعلى الصعيد الداخلي تأثرت القبائل والشيوخ والمرابطون بهذه الانتصارات وكان الأمير هو الذي دفعهم إلى التزام الشعور الوطني أكثر بعد أن كانوا متذبذبين فعملوا على مساندته ومقاطعة التجاري مع الفرنسيين.

في حين كان أثر ذلك في الخارج بأن تجدد الاختلاف داخل البرلمان الفرنسي نفسه فظهر فريق قوي طالب بالجلاء الفوري تحت قناعة أن البقاء في الجزائر يعني عبئا ماديا وبشريا ودون مقابل، وكتب دي صاد وهو النائب واحد الأعضاء البارزين في اللجنة الإفريقية كتب يوم 28 أفريل 1834 يقول: يوجد بالغرب الجزائري 100 ألف محارب يمكن للأمير أن يتولاهم بنفسه فيشكل لنا خطرا عنيفا، لأنه الشخص الوحيد المناهض لوجودنا.

توصل دي ميشال إلى عقد صلح مع الأمير يوم 26 فيفري 1843 ولا داعي أن نفصل مراحل وبنود هذا الصلح، وإنما يكفي أن نقول إن هذا الصلح يعني ضعف القوة الفرنسية في هذه المنطقة، كما أن هذا الصلح يعد وسيلة ضرورية ليمكن بعدها الطرفان من إعداد نفسه من جهة أخرى فالأمير مثلا: تمكن وفقا لمعاهدة تصبح هذه من الحصول على 100 بندقية و5000 كلغ بارود من دي ميشال، ثم تفرغ إلى تنظيم الداخل لأن قبائل كثيرة -بقيادة ابن العربي- ثارت

ضد الأمير الذي جهز حملة تأديبية ضدهم وانتصر عليهم في جوان 1834 ثم عين عليهم بوشاقور خليفة له. ثم عين محي الدين بن علال خليفة له في مليانة وفوض له أن يجمع كلمة المسلمين المتمردة بالشلف إلى شرشال والتيطري ثم تفرغ الأمير ناحية الغربية فأخضع قبيلة رياح فيما وراء تلمسان. ثم اتجه إلى بني عباد الذين أعلنوا العصيان.

وانضم الشيخ ابن العماري غرب التافنة إلى أعراش الدوائر وتصدوا للأمير الذي لم يكن منه إلا أن دخل في حرب ضدهم فانتصر عليهم في جويلية 1834 بعد أن قتل من أبطالهم ما تبكي عليهم العيون أمثال عبد الله بن الشيخ العماري ثم دخل تلمسان التي كان عليها مصطفى بن إسماعيل المناهض للأمير ففر ابن إسماعيل هذا إلى المغرب وأرسل الأمير الأمان إلى كل من ابن العماري والمزاري اللذان كانا في صف ابن إسماعيل.

ولنا أن نتساءل عن سبب مناهضة هذه القبائل للأمير؟ في رأيي هناك عدة أسباب منها: حتى لا تدفع هذه القبائل والأعراش الضرائب للأمير. ثم أن الكثير منها أعلنت ولاءه للفرنسيين خوفا منها وطمعا فيها. ثم أن الأنفة القبلية والاعتداد الذاتي لشيوخها منعها من أن تنظم لزعيم آخر من قبيلة أخرى، وهل هذه يعد من أكبر العوامل التي منعت قيام وحدة وطنية في الجزائر. كما أنه كان من أكبر العوامل التي ساعدت الاستعمار الفرنسي على التحكم في البلاد.

بعد أن أحرز الأمير جملة من الانتصارات في الشمال الغربي أولى اهتماما لنواحي أخرى فبعث خليفته محمد الصغير إلى بسكرة. ويكون الأمير بذلك قد حقق أكثر من انتصار على جبهتين فالأولى تمثلت في قوة فرنسا التي

توصل مع ممثلها دي ميشال إلى صلح. والثانية جبهة القبائل الثائرة التي أخضعها بالقوة وإن كانت قد نالت من قواته الشيء الكثير.

بعد هذا أراد أن يوسع نشاطه أكثر طالبا للمزيد من الانتصارات بأن حاول كسب تأييد النظام التونسي فأرسل محمد بن كانون إلى أحمد باشا حاكم تونس محملا بهدية معتبرة عبارة عن سيف مرصع بالجواهر وخيول ذات سروج ذهبية وآنية شاي من ذهب. وعاد هذا الوفد محملا بالهدايا تعبيرا عن تبادل المشاعر. لأنه سبق لنظام الحكم في تونس أن طمع في الاستيلاء على مقاطعتي الغرب والشرق وقد أبرمت معاهدة في هذا الشأن بين الحاكم التونسي والحاكم الفرنسي كلوزال يوم 6 فيفري 1831 إلا أن ذلك لم يتم وهذه لفتة دبلوماسية من الأمير عبد القادر الذي برهن هذا الموقف على بعد نظره وعلى قوة إيمانه في تكوين دولة قوية على غرار الدول الأخرى، وكان لا يتأتى له ذلك إلا بالعرف الدبلوماسي. ويكون أيضا قام بهذه المحاولة قصد التخلص من العدو الثالث بعد الفرنسيين والقبائل. والمتمثل في شخص الحاج أحمد باي قسنطينة الذي كان على خلاف مع نظام الحكم التونسي ومع الأمير عبد القادر

في هذا الوقت الذي أنكب فيه الأمير على إعداد دولة عصرية عزل دي ميشال وحل محله تريزيل(Trezel) ويذهب البعض إلى أن سبب عزله هو أن السلطة الفرنسية أحست بميله إلى الأمير بل وأنه سيعتنق الإسلام، ولكن من المؤكد أن عزل دي ميشال جاء نتيجة ضغط التجار الفرنسيين حين تأثرت تجارتهم بما لحقهم من أضرار كثيرة لأن أرزيو كانت مركز النشاط التجاري

ووفق لمعاهدة الصلح فأرريو كانت تحت نفوذ الأمير التي عين عليها وكيله ابن محمود وأيضا أنه أحسب بأن المعاهدة كانت لصالح الأمير الذي شرع على إثرها لتنظيم دولته وتقويتها، وهو ما لم يكن يتفق مع أهداف فرنسا الرامية إلى استعمار الجزائر.

في هذا الوقت قام شيخ من الطريقة الشاذلية واسمه الحاج موسى حسن المعروف بأبي حمار -لإدمانه على ركوب الحمار- فجمع إليه أعراشا كثيرة ومنهم أولاد نايل وزحف على مدينة المدية وصادف أن أطلقت على قوته طلقة واحدة من مدفع قديم فتطايرت شظاياه فاعتبر هو ومريدوه ذلك معجزة منه، ولما سمعت الأعراش التي على خلاف مع الأمير انضمت إلى أبي حمار -فقرر الأمير محاربة هذا -الدجال- فكتب أبو حمار إلى الأمير يطلب منه أن يجاهد في سبيل الله ضد الفرنسيين وأن يعلن الطاعة إليه فكان رد الأمير: أنه لا يمكن أن يحارب الفرنسيين التزاما بمعاهدة الصلح، وأما الطاعة فالأمير مبايع لا يمكن أن يطيع من ليس مبايعا.

ويمكن أن نستخلص ثلاث نقاط من موقف أبي حمار هذا، الأولى أنه تحرك بدافع الغيرة على الإسلام، الثانية انه قصير النظر لما طلب من الأمير الجهاد لأن الظرف يحتاج إلى التريث والإعداد لا إلى الاندفاع والهجوم، والثالثة التناحر بين الطرق "الصوفية" لأن أبا حمار ينتمي إلى طريقة وكذلك الأمير ينتمي إلى طريقة أخرى تأبى كل منهما الخضوع للأخرى.

المهم استعد الطرفان لإضعاف قواهما وبعد أن خاطب أبو حمار الناس بقوله: بأن مدفع الأمير لا يعمل شيئا وكذلك رصاصه لا يخترق الأجسام

وانتهت المعركة بانتصار الأمير فدخل المدية وعين عليها خليفة وهو محمد البركاني فاغتنم تريزيل حاكم وهران هذه الفرصة وحمل الأمير مسؤولية خرق المعاهدة باحتلاله المدية. في الوقت الذي طلبت الحكومة الفرنسية من هذا الحاكم العام أن يعقد الصلح مع هذه القبائل لمحاربة الأمير إلا أن الحاكم العام رفض ذلك أملا في أن يعقد صلحا مع الأمير عبد القادر يكون فيه من المصالح أكثر، لأنه يمثل مركز القوة في الناحية فخرج تريزيل في أول جويلية 1836 على رأس قوة تقدر بـ 5000 عسكري مدججة بأسلحة كافية فتصدى لها الأمير بثبات ونظام فكان ميمنة جيشه خليفته البوحميدي والميسرة خليفته بوشاقور في حين كان الأمير قلب الجيش والتحم الفريقان في كرور بالقرب من سيق وحقق الأمير انتصارا عظيما في هذه المنطقة بوادي المقطع وهي معركة المقطع عام 1836. والسؤال كيف تمت هذه المعركة؟

نقض تريزيل المعاهدة وخرج أول جويليا عام 1836 من وهران بجيش قوته 5000 محارب من المشاة وفرقة من الخيالة مزوده بأربعة مدافع ومؤونة وافره يساندهم جيش من قبيلتي الدوائر والزمالة الجزائريتين المشكلين من 2000 خيمة كل ذلك لمحاربة الأمير عبد القادر.

علم الخليفة البوحميدي وأخبر الأمير عبد القادر بهذا التحرك فأسرع على رأس جيش يتكون من 2000 فارس و1000 من المشاة ومن دون أن يتردد الأمير فعين خليفته البوحميدي في الميمنة وخليفته بوشقور في الميسرة وتولى الأمير رئاسة القلب. وهذه الخطة معروفة ومعتادة في الجيوش القديمة التي تعني مواجهة العدو. لكن الأمير اكتفى بالمناوشة من دون الالتحام وهذا في منطقة

سبق. واستمرت هذه المناوشة يومين الأمر الذي شجع الجيش الفرنسي على هجوم أكثر من مرة لكن الأمير انقضّ على الجيش الفرنسي في الوقت المناسب فانهزم بسرعة فما كان من تريزيل إلا التفكير في العودة إلى وهران لكن الأمير سدّ المنافذ وفرض عليه أن يسلك طريقا وعرة وفي الحين جهز الأمير 1000 فارس وأردف بـ 1000 آخر وأسرع بهم إلى مكان يسمى مجر هبرة المعروف بالمقطع وهو المسلك الوحيد الذي يمرّ منه تريزيل. وفور وصول الجيش الفرنسي إلى هذا المكان أحاط الجيش الجزائري به فما كان من تريزيل إلاّ الإسراع للخروج من هذا المسلك وإذا به وجد نفسه وجها لوجه أمام فرسان الأمير فنزل الرعب في ما تبقى من جيش تريزيل فتراجعت مقدمته لتصطدم بمؤخرته فكان القتال غير متكافئ حيث لحقت الهزيمة النكراء بجيش فرنسا للمرة الثانية في معركة واحدة. فترك قتلاه وأسراه وعتاده وانسل تريزيل خفية عائدا إلى آرزيو خائبا.

والسؤال المطروح كيف انتصر الأمير؟

إن عوامل كثيرة مكنت الأمير كي ينتصر نذكر منها إستراتيجيته المتمثلة في إعداده لجيش منظم مثلما سبق وأن ذكرنا أيضا أن الأمير كان يحارب في مدنه التي يعرفها جيدا بينما تريزيل كان يحارب في منطقة لا يعرفها هو دخيل عليها وهذا يؤكد مدى أهمية معرفة المكان في ميدان القتال حيث فرض على العدو أن يسلك طريقا ليس في صالحه(مسلك الهبرة/المقطع). أيضا اعتماد الأمير على قلة العدد وخفته بينما كان تريزيل اعتمد على كثرة العدد وثقله وهذا يؤكد أن كثرة العتاد والعدد يصعب التحكم فيه في المعركة أيضا أن الأمير قسم الأدوار على جيشه فريق يناوش وفريق يهجم. من العوامل أيضا أن الجيش الجزائر كان موحد الصف مقتنعا بقداسة الجهاد من أجل الجزائر في حين كان جيش تريزيل متعدد الجنسيات يحارب من أجل الحرب. بجانب هذا كله كان عنصر المفاجأة الذي طبقه الأمير ضد عدوه.

وكانت هذه الهزيمة النكراء نتائج كثيرة من بينها عزل تريزيل من منصبه ودخول في مرحلة حاسمة أصرت فرنسا على ضرورة القضاء على الأمير عبد القادر بدءا باحتلال عاصمته معسكر.

وبهذا الانتصار انضمت إلى الأمير أعراش وقبائل زادت في قوته ورفعت معنوياته فتأكد له النصر، وأعطى لذلك بعدا بأن قرر تهديد الفرنسيين المتمركزين في العاصمة بأن وجه أوامره لخليفته في مليانة أن يهجم على مدينة الجزائر بقوات قدرت بـ 5000 مجاهد، كما وجه تعليماته إلى خليفته في تلمسان كي يقوم هو الآخر بهجوم على وهران، ويتأكد من هذا أن الأمير عقد العزم على تحرير البلاد من السيطرة الفرنسية

أمام تعاظم قوة الأمير وانتصاراته على الفرنسيين وخوفا من القضاء على القوات الفرنسية أسرعت الحكومة الفرنسية في إرسال بيجو إلى الجزائر الذي اتجه فور وصوله إلى تلمسان على رأس نجدات عسكرية قدرت بحوالي 3000 عسكري اتجه بها يوم 1 جويلية 1837.

وتمكن بيجو من تحقيق انتصارات على الأمير إذ افتك منه عاصمته وحاصر تلمسان وانتصر عليه في وقعة سكاك، وبالرغم من هذه الهزائم التي مني بها الأمير إلا أنه لم يكل بل واصل جهاده على مختلف الجبهات، مما يدل على ثقته

القوية وإيمانه الراسخ، بجانب دعم المواطنين له. ولما بلغ مسامع الأمير أن - كلوزال - قد فشل في حملته على قسنطينة 1836 أراد هو الآخر أن يزيد من ضعف فرنسا فأمر خليفته مصطفى بن التهامي والبوحميدي أن يجمع قبيلتي الغرابة وبني عامر ويعدهما للجهاد وكذلك أمر خليفته محمد بن علال أن يضايق الفرنسيين المتواجدين في العاصمة وضواحيها بأن يقطع عنهم المؤونة

ويكون الأمير بهذا العمل أراد أن يشتت قوة الفرنسيين ويدفعهم إلى الجلاء عن البلاد، وهو مصيب إلى أبعد حد، لأن القوة الفرنسية تمزقت في الشرق والغرب ولم تجد بدا من التفكير في عقد صلح مع الأمير عبد القادر إذ فكر الحاكم العام دامريمون (Damerémont) الذي تولى القيادة في فيفري 1837 فكر في عقد صلح وطلب ذلك من الأمير الذي اشترط بدوره على هذا الحاكم اعتماد العملة التي يسكها الأمير في قطاع دولته، إلا أنه رفض نظرا لخطورة هذا الشرط على مستقبل فرنسا

كانت معاهدة التافنة في تاريخ 30 ماي 1837 بين دولة الأمير والسلطة الفرنسية الحالية كانت خدمة للطرفين، خدمة للأمير الذي تفرغ على إثرها في تنظيم الداخل بأن جدد حروبه ضد القبائل والأعراش التي انشقت عن صفه، في حين كانت خدمة للسلطة الفرنسية بأن تفرغت للقضاء على قوة أحمد باي فرمت كل ثقلها إلى الشرق، وبالفعل تمكنت من احتلال مدينة قسنطينة ومن بعدها كامل الشمال، وهذا موضوع نتناوله في موضع آخر، المهم تعتبر هذه المعاهدة بالنسبة للأمير انتصارا كبيرا فجاءته وفود منها من تبارك، ومنها من

تعلن ولاءها من جديد، ومنها من تطلب الأمان فعين على الأغواط الحاج العربي بن الحاج عيسى العواطي. وما جاء سنة 1838 حتى تمكن الأمير من القضاء على كل الخلافات في تلك الناحية.

ووفد عليه شيوخ من ناحية قسنطينة ومن الحدود الشرقية جاءوا يستنجدون به فرحب بهم واعتذر لهم لأن المعاهدة "التافنة" تمنعه من أن يخون، ويبدو الأمير هنا رجل إيمان، رجل سلام أكثر مما هو رجل سياسة، ويكون من جهة أخرى قد أضعف روح «المقاومة» في هذه المنطقة التي ظلت تبحث عن زعيم هنا خاصة بعد سقوط أحمد باي.

لجأ أحمد باي إلى منطقة بسكرة لكن فرحات بن سعيد بإيعاز ودعم من الأمير وبرفقة خليفته محمد البركاني حارب أحمد باي الذي لم يجد حلا غير الرحيل، ومن ثمة خضعت قبائل الدواودة وبرلوة إلى خليفة الأمير وهو فرحات بن سعيد، وبذلك خضعت الزيبان إلى نفوذ الأمير وهو ما لم ترضاه السلطة الفرنسية إذ أرسل فالي (Valée) القائد على قسنطينة إلى الأمير يقول له إن لا دخل لك في إقليم قسنطينة، فرد الأمير: أن إقليم قسنطينة فيه إعادة نظر، وأن الزيبان كانت خارجة على نطاق أحمد باي ومن ثمة ساءت العلاقات من جديد والذي يزيدها سوءا انضمام بوعزيز بن قانة إلى الصف الفرنسي وضد الأمير

ولنا أن نتساءل عن العوامل التي دفعت بوعزيز بن قانة إلى إعلان الولاء للفرنسيين وتخليه عن مناصرة أحمد باي، تبدو لنا العوامل كالآتي أنه تيقن من أن قوات أحمد باي لا يمكن أن تصمد أمام القوات الفرنسية طويلا. لأنه بالانضمام إلى السلطة الفرنسية ستعلو مكانته ويصان مركزه. ويتمكن من

القضاء على كل من بوعكاز وفرحات وبن سعيد المناصرين للأمير عبد القادر، وبالفعل تمكن من قتل فرحات بن سعيد بواسطة أنصاره. هذا تخلى عن أحمد باي وانظم إلى الفرنسيين فنصب شيخا على العرب في جانفي 1839 ودخلت تحت نفوذه مناطق كثيرة

وجاء نصمام بوعزيز بن قانة في وقت كانت فيه السلطة الفرنسية في حاجة ماسة إلى مناصر خاصة في هذه المنطقة من الزيبان وذلك لضرب الأمير عبد القادر الذي أرسى قواعد دولته؛ ومن ثمة ظهرت قوتان تتصارعان السيادة في المنطقة هما قوة ابن قانة المسانده بقوة الفرنسيين، وقوة الأمير عبد القادر الذي أرسى قواعد دولته التي اتسعت ولاياتها ونذكر منها ولاية برج حمزة خليفتها محمد بن عبد السلام المقراني ثم أحمد بن عمر، وولاية الزيبان تحت خلافة فرحات بن سعيد فحسن بن عزوز وأخيرا محمد الصغير بن أحمد بن الحاج، وكان هذا الأخير قد تحصن في سيدي عقبة وانضم إليه الشيخ أحمد بن شوف بعد أن كان عضد ابن قانة. ونتج عن هذا الاتحاد بين محمد الصغير وابن شوف سقوط مدينة بسكرة بيد قوات الأمير عبد القادر، وبقيت هذه المدينة تحت نفوذ خليفة الأمير إلى أن تمكنت القوات الفرنسية من احتلالها يوم 4 مارس 1844

وبالرغم من أن محمد الصغير هاجم الحامية الفرنسية هناك إلا أن القوات الفرنسية بسطت نفوذها على المنطقة وساعدها على ذلك مناصرة بعض الشيوخ للفرنسيين نذكر منهم شيوخ من بني حلاب بتوقرت الذين سهلوا فيما لفرنسا أن تحتل مناطق أخرى.

وبذلك تكون المنطقة خرجت من حوزة الأمير عبد القادر الذي بدأ نفوذه يتقلص شيئا فشيئا وسنعود للحديث عن عوامل الأمير عبد القادر بعد استعراض نشاطه السياسي

نشاطه السياسي -الدبلوماسي

للأمير عبد القادر نشاطات كثيرة، علمية ودينية وعسكرية وسياسية؛ إذ تكاملت شخصيته من كافة الجوانب، وكان لتكوينه هذا أفق واسع أهله أن يلعب دورا كبيرا في هذا التاريخ في كفاحه ضد الفرنسيين وحتى فيما بعد في المشرق

ويمكن عرض بعض الجوانب من النشاط السياسي الذي يعد الشطر المكمل لنشاط العسكري من ذلك أنه اتصل بسلطان المغرب وأعلن ولاءه له لسبب سياسي بالدرجة الأولى هذا في الظاهر على الأقل وقد يكون في الباطن أن الأمر يتعلق بجانب فقهي، وكان ذلك الاتصال شرطا لنجاح المقاومة. وتلقى مساعدة من قوة المغرب منها أنه حصل في البداية -قبل أن تتدخل السلطة الفرنسية في شؤون المغرب- على عدة مكاسب منها أن أخلت القوات المغربية مدينة تلمسان كما قدم سلطان المغرب تأييدا معنويا وماديا بما في ذلك حصوله على أسلحة فكان لهذا العامل وقع كبيرا على نفس الأمير ومن حوله، وعامل ترغيب في المزيد من الجهاد، وعامل ترهيب لأعداء الأمير

بعد هذه الخطوة اتصل بنظام الحكم التونسي فأرسل وفدا محملا هدايا كما سبق ذكره، ثم فتح باب المفاوضات مع السلطة الفرنسية المحلية وتباحث معها في قضايا متعددة عن طريق موكله في الجزائر العاصمة توصل من خلالها إلى

عقد اتفاقيات كانت للأمير منافع نذكر منها: الحصول على الحديد والبارود والكبريت وإطلاق سراح الأسرى المسلمين مقابل فك الحصار التجاري عن السوق الفرنسية لتستفيد بكميات هائلة من الحبوب.

ووسع من هذا العمل بأن أمده إلى باريس حيث بعث سفيرا له هناك وهو ميلود بن عراش ليتصل بملك فرنسا لويس فيليب، علاوة على أن أحد المواطنين وهو أحمد بوضربة الجزائري الذي نفته السلطة الفرنسية إلى باريس 1830 كان يعمل لصالح الأمير خلال هذه الفترة، ولسنا ندري أيكون مبعوث الأمير ميلود بن عراش قد اتصل بأحمد بوضربة أم لا؟ وإن كنا لا نستبعد ذلك إنما المؤكد أن أحمد بوضربة هذا كان على اتصال بالأمير، بل كان أكثر الناس الداعين لنصرته.

ثم أسس علاقات وثيقة مع إنجلترا فربط معها علاقات تجارية وعمل على تصدير كمية من الصوف والحبوب والزيت والجلود من تلمسان مقابل حصوله على كميات هائلة من القهوة والسكر. وقد تكون تجاوزت ذلك أسلحة، وهو ما أقلق السلطة الفرنسية إذ أرسل لباسكي المقتصد المدني تقريرا إلى الحاكم العام يوم 15 ديسمبر 1834 محتواه أن الأمير قد تعامل تجاريا مع الشركة الإنجليزية المتواجدة بجبل طارق ولم يكتف الأمير عبد القادر بربط علاقات دبلوماسية مع كل من السلطان المغربي ونظام الحكم التونسي وباريس وبريطانيا فحسب، بل مد ذلك إلى الباب العالي، ويعود الفضل في دفع الأمير إلى الاتصال بالباب العالي هو حمدان خوجة إذ بمجرد أن اشتد القتال بين الفرنسيين والأمير استبشر خيرا وطلب من الأمير أن يعقد اتصالات بسلطان الباب العالي،

والعرب في الأمر أن حمدان خوجة كان في حالة عداء مع الأمير وهو في فرنسا إلا أنه عدل عن ذلك وتقرب إلى الأمير (وهذا موضوع آخر عن حمدان نبحثه في موضع آخر).

ومهما يكن من أمر فإن حمدان تقرب إلى الأمير نتيجة الانتصارات التي حققها هذا الأخير، أو لإدراك حمدان أن الأمير يتمتع به قبائل قوية بإمكانها أن تطرد الفرنسيين، ثم إنه من جهة أخرى أدرك زيف السلطة الفرنسية ووعودها الكاذبة

وبعد تفهمه قول الأمير يكون حمدان قد راسل الأمير في هذا الشأن حيث قال: "لقد فرغ من مطبخ ودكم مشتري محبه في برج عرش الحسب إلا أن في أثره بشارة أنا كاتب آل عثمان مع أننا لم نقع ما قط كتابة خوفا من عدم القبول أو عدم الإجابة فعندما إشارتك بهذا الرأي الرشيد واستعطفنا سيدنا ومولانا السلطان عبد الحميد وعرضنا على حضرته العلية حالنا".

وقد قدر الباب العالي موقف الأمير، لكنه وضعه كان ضعيفا فلم يتمكن من تقديم مساعدة لا إلى الأمير فحسب، بل حتى إلى أحمد باي الذي كان كثير الإلحاح لتقديم المساعدة.

وبناء على ما تقدم نستخلص أن الأمير عبد القادر قد بذل جهدا دبلوماسيا معتبرا لإعطاء بعدا لدولة فتية ولربطها بالدول العظمى، من جهة، كما أنه يعرف من جهة أخرى أنه صار في وضع يستلزم المزيد من المساعدة إلا أن شيئا كهذا لم يحدث لأن معظم الوثائق التي بين أيدينا لا توضح أن مساعدات كافية وصلته إلا باستثناء الشيء القليل من أعداء الفرنسيين والسلطان المغربي. وبذلك

يكون الأمير عبد القادر قد وظف جميع الطرق من علمية وعسكرية ودينية واجتماعية وسياسية لتطوير دولته وبالتالي لبعث حركة وطنية جزائرية صحيحة. إلا أنه لم يكتب لها الدوام إذ تضافرت عوامل قوية أدت إلى ضعفه ومن هذه العوامل:

1. تفوق فرنسا عسكريا وسياسيا، وإصرارها على مواصلة الاحتلال خاصة لما تعين المارشال -سولت- رئيسا للوزراء يوم 30 ديسمبر 1840 والذي كان مناصرا لفكرة ضرورة الاحتلال، وتعين بيحو حاكما عاما على الجزائر مكان -فالي- في فيفري 1841 والذي جاء على رأس قوات كثيرة العدد والذي جاء بسياسة جديدة هي سياسة الأرض المحروقة.
2. العامل الثاني تمثل في نعرات القبائل التي أعلنت عصيانها وعدم اتحادها مع الأمير عبد القادر، فعلى الرغم من أنه تمكن من إخضاع بعض القبائل بفضل التنظيم والإيمان، إلا أن حروب القبائل ضده نالت من قواه الشيء الكبير، وإن كنت أرى أن أكبر عامل أضعف دولته هو هذا الانشقاق القبلي، ولا بأس من ذكر مثال على ذلك، قام سيدي محمد بن سيدي أحمد بن سالم التيجاني - الطريقة التيجانية- قام باستنفار أهالي الأغواط ضد الأمير عبد القادر، كما أن قبائل أخرى حذت حذو التيجاني.
3. وهناك عامل ثالث هو عدم وصول نجدات عسكرية من أية جهة خاصة بعد أن اشتدت الحروب بين الأمير والقوات الفرنسية، لاسيما بعد قضي على -الزمالة- الدولة المتنقلة من طرف القوات الفرنسية.

4. هناك عامل رابع وهو أن تنظيماته ومخططاته كانت معروفة عند الفرنسيين عن طريق ليون روش الذي انضم إلى الأمير عبد القادر وعمره عشرون سنة قصد التجسس عليه بعد أن أظهر إسلامه، إذ قربه الأمير إليه إلى أن صار مستشاره الخاص يحضر كل مجالسه، ومن أراد الإطلاع على أفكار هذا الفرنسي الجاسوس يقرأ كتابيه: "ثلاثون سنة عبر الإسلام" و"عشرة سنوات عبر الإسلام".

فتضافرت هذه العوامل وأدت إلى نتيجة وهي استسلام الأمير إلى حتمية المصير سنة 1847، وإن كنا نرى في استسلامه ضرورة أمليت عليه، وليس خيانة منه كما يحاول البعض مسه بها.

يتضح لنا مما تقدم أن الأمير عبد القادر يعد رائدا للحركة الوطنية الجزائرية، والمقاومة المسلحة، على الرغم من أنه حارب على جبهات متعددة، حارب ضد الفرنسيين الذين كانوا يفوقونه عدة وعددا، كما حارب في أكثر من موطن تلك الأعراش والقبائل المنشقة، ثم إنه تصدى لأحمد باي كجبهة ثالثة.

ولم تلهيه هذه الحروب عن ممارسة لون آخر من النشاط وهو الدبلوماسية إذ تمكن من ربط صلات وثيقة بدول كثيرة بدأها بسلطان المغرب ثم نظام الحكم التونسي وباريس وإنجلترا وغيرها من الدول، وختمها بالباب العالي، فيكون بذلك قد عمل على إرساء قواعد لدولة قوية ذات بعد حضاري، لها تأثيرات داخلية وخارجية فهو بحق بعد رائد: وعنوان الافتخار.

فهرس المواضيع



صدر للمؤلف نفسه

- جوانب من السياسة الفرنسية والمقاومة الوطنية بالشرق الجزائري
- دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية (1827 - 1840)
- في منهجية البحث العلمي
- دراسات في تاريخ الجزائر الحديث الطبعة الثانية
- محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث الطبعة الثانية
- من الملتقيات التاريخية الجزائرية
- بحوث تاريخية
- فواصل من الفكر والتاريخ
- علاقات الشرق الجزائري بتونس أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي
- وصف رحلة من الجزائر إلى قسنطينة عام 1832
- أبحاث في الفكر والتاريخ
- رسالة الطريقة القادرية في الجزائر
- ملخصات وآراء في التاريخ الحديث والمعاصر
- الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر
- موضوعات في تاريخ الجزائر السياسي
- السياسة الفرنسية والمقاومة الوطنية في منطقة سكيكدة 1838 - 1858
- السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1844 - 1916 (عمل مشترك)
- دليل الجامعة للدراسات العليا (عمل مشترك)
- ... DE SOCIOLINGUISTIQUE D'UN MILIEU SCOLAIRE DE 6°A

ردمك 7 - 597 - ...